جورج واشنطن

جورج واشنطن

الأب المؤسس

تأليف

بول جونسون

ترجمة

محمد إبراهيم السيد

مراجعة

هبة نجيب السيد مغربي



George Washington
The Founding Father
Paul Johnson

جورج واشنطن
الأب المؤسس
بول جونسون

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م
ISBN 978 977 6263 33 8
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

جونسون، بول
جورج واشنطن: الأب المؤسس / بول جونسون . – القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٩
١٢٨ص، ١٤,٥×٢١,٠سم
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٣٣ ٨
١- الولايات المتحدة الأمريكية - تاريخ - العصر الحديث - جورج واشنطن (١٧٨٩–١٧٩٧م)
٢- الولايات المتحدة الأمريكية - رؤساء الجمهورية
٣- واشنطن، جورج، ١٧٣٢–١٧٩٩
أ- العنوان
٩٧٣,٤١

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2009 Kalimat Arabia
George Washington
Copyright © 2005, Paul Johnson
All Rights Reserved.

إلى حفيدتي الأمريكية

المحتويات

١- شاب نبيل في فيرجينيا ٩
٢- عقيد شاب شجاع وزوجة ثرية ٢٩
٣- مالك للعبيد ومزارع رائد وبناء ٤٣
٤- قائد عام للقوات وجنرال منتصر ٥٥
٥- تأسيس أمة: النظرية ٨١
٦- تأسيس أمة: التطبيق ٩٣
٧- السنوات الأخيرة ١١٧
المراجع والمصادر ١٢٣

الفصل الأول

شاب نبيل في فيرجينيا

كان جورج واشنطن أحد أهم الشخصيات في تاريخ العالم؛ إذ إنه هو الذي اضطلع بالدور الرئيسي في الثورة الأمريكية. وقد حرر المستعمرات الثلاث عشرة من قبضة الحكم الاستعماري عندما كان القائد العام للقوات الأمريكية طوال الصراع الذي استمر ثمانية أعوام. وقاد بعد ذلك العملية التي اعتمدت عليها الأمة الجديدة في صياغة دستورها الفيدرالي وإقراره وتشريعه. وأخيرًا، وعلى مدار ثمانية أعوام تولى جورج واشنطن إدارة الحكومة التي اضطلعت بتطبيق الدستور بنجاح، حتى إنه بعد تحديثه وإجراء التعديلات المناسبة عليه؛ استمر ما يقرب من مائتي وخمسين عامًا.

وبهذا كانت الثورة التي قادها نحو النجاح هي الأولى في سلسلة من الثورات التي أدت إلى نشأة العالم الحديث الذي نحيا فيه. وقد كانت روح الثورة مدفوعة بالرغبة نفسها في حكومة نيابية، والاحترام نفسه لسيادة القانون، اللذين تمخضا عن الدستور الإنجليزي غير المكتوب على مدار قرون عدة. ويرجع الفضل في بث تلك الروح بنجاح في الأمة الأمريكية الجديدة إلى عبقرية جورج واشنطن. وقد أفسد الثورات اللاحقة — في فرنسا في تسعينيات القرن الثامن عشر وفي أمريكا اللاتينية على مدار ربع القرن التالي — وقوع أحداث مأساوية نتيجة للعنف والطموح، أدت إلى اضطرابات دائمة لم تتمكن سيادة القانون في ظلها من أن تترسخ. وكثيرًا ما تكرر ذلك النموذج في الثورات التي اندلعت في القرن العشرين، والتي حصلت بها شعوب آسيا وأفريقيا على استقلالها. ومع ذلك، تشبثت الولايات المتحدة

طوال تلك الفترة بالمبادئ التي حارب من أجلها جورج واشنطن والتزم بها في أثناء فترتي رئاسته. وقد مكنت تلك المبادئ الولايات المتحدة من النجاة من حرب أهلية شبه مهلكة، وجعلتها أكبر قوة اقتصادية في العالم، تستقبل الفقراء من جميع أنحاء العالم وتحولهم إلى أغنى الأغنياء في التاريخ، وأخيرًا جعلتها تصبح القوة العظمى الوحيدة في العالم بنهاية القرن العشرين. وفي بداية القرن الحادي والعشرين، تبدو الولايات المتحدة مستعدة للاضطلاع بالدور الرئيسي في نشر الأمن والديمقراطية في جميع أنحاء العالم. وقد اضطلع جورج واشنطن، ولا يزال، بدور فريد في هذه العملية الهائلة باعتباره الأب المؤسس، ونموذجًا يحتذى به في الاعتدال والحكمة.

أي نوع من الرجال كان جورج واشنطن؟ وكيف تأتى له تحقيق كل تلك الإنجازات؟ يسهل الرد على هذا السؤال لو أن الوثائق وحدها تستطيع تقديم إجابة له. فقد عمل لما يزيد عن ثلث عمره في خدمه بلاده، ونجد أن جميع إنجازاته التي حققها على المستوى الرسمي مُسجلة ومحفوظة في إدارة المحفوظات القومية على نطاق لم يتسن لأية دولة أوروبية حينها أن تضاهيه. ووُلدت الدولة القومية الأمريكية على رءوس الأشهاد، وتم تسجيل ميلادها بدقة متناهية، علاوة على ذلك، أخذ جورج واشنطن منذ أن كان عمره قرابة أربعة عشر عامًا يحتفظ بكل قصاصة ورق تخصه، بما في ذلك دفاتر اليوميات والخطابات المرسلة والمتسلمة، والسجلات وغيرها من المعاملات اليومية. وعندما بدأ يتقدم في العمر، بدأ ينظم تلك الأوراق وفقًا لتسلسلها الزمني، وصنفها وفقًا للاسم والموضوع؛ فيبدو أنه أدرك منذ مرحلة مبكرة من حياته المهنية أنه سيصبح شخصية تاريخية مهمة، ولذلك أراد تسجيل الأحداث بدقة بهدف إثبات أنه تولى المناصب التي شغلها بدافع الواجب وليس التباهي. وكان طموحه الجامح هو أن يُرى على أنه غير طموح، ومن ثم كان اهتمامه بأوراقه مزيجًا غريبًا من التواضع والوعي بالذات. وقد أخذ سجلاته معه عندما ذهب إلى الحرب، وأصدر تعليمات مشددة لحرسه الخاص بحمايتها بأرواحهم والإسراع بنقلها إلى مكان سري آمن في حالة تعرض مركز القيادة للخطر. وبعد الحرب انتقلت

السجلات إلى منزله (ماونت فيرنون)، وفي وقت لاحق تزايدت بصورة ضخمة أوراقه وهو يشغل منصب الرئيس، وتولى حفظها وتصنيفها سكرتير وأمين سجلات خاص. وعندما وافت المنية جورج واشنطن، حمل مساعده جارد سباركس Jared Sparks جميع السجلات إلى بوسطن، حيث انتقلت منها في عام ١٨٣٢م إلى مكتبة الكونجرس التي اشترتها من الورثة. تشغل تلك السجلات مساحة ١٦٣ قدم من الأرفف — بواقع وثيقة واحدة بكل صفحة مثبتة من الجانب الأيسر ومجلدة؛ وتباع في ١٢٤ بكرة ميكروفيلم، وهي متوفرة الآن على أقراص. وتمثل تلك السجلات مجمعة أكمل السير الذاتية في القرن الثامن عشر بأسره، وتفوق بذلك بكثير الكميات الهائلة من الآثار التي تركها — على سبيل المثال — جيمس بوزويل James Boswell، أو هوراس والبول Horace Walpole.

ومع ذلك، ورغم كتابات معاصريه عنه التي لا حصر لها والكمية الهائلة من المراجع التي جمعها المؤرخون، والتي هي من الضخامة بمكان بحيث يتعذر على أي شخص قراءتها واستيعابها؛ يظل جورج واشنطن شخصية مجهولة وغامضة. فقد كان شخصية حيرت من عرفوه وعملوا معه، من الذين كثيرًا ما اختلفوا بشدة حول سماته وقدراته. إنه حقًّا شخصية محيرة، فلا يوجد عقل يصعب ولوجه وسبر غوره مثل عقل جورج واشنطن. لقد اتفق الجميع، ولا يزالون، على أنه كان نموذجًا يحتذى به، لكن أكان نموذجًا ثريًّا أم خاويًا؟ أكان أسطورة من لحم ودم، أم آلة مُبرمجة على التصرف بحكمة؟ دعونا نستكشف الأمر.

نجد أن أول حقيقة ذات أهمية هي أن جورج واشنطن ينحدر من أصول إنجليزية نبيلة، وينتمي إلى الطبقة التي بجلها أشد ما يكون، ألا وهي الطبقة الأرستقراطية المستقلة التي تملك الأراضي. لقد كان يطمح طوال حياته إلى أن يكون سلوكه سلوك سيد نبيل، وأن يمتلك من الأرض أكبر مساحة يقدر على زراعتها. كان أولئك المزارعون النبلاء ينتمون إلى مدينة نورث هامبتون التي تقع في قلب إنجلترا، وكانوا شديدي الولاء للملكية، مع أن مدينة نورث هامبتون، التي كانت مركزًا لتجمع صانعي الأحذية؛ اشتهرت

بأنها مهد للثوار. وفي عام ١٦٥٧م، تحطمت سفينة مساعد القبطان جون واشنطن John Washington، التي كانت تحمل اسم «سي هورس أوف لندن» Sea Horse of London نتيجة اصطدامها بمنطقة مياه ضحلة بنهر بوتوماك، بالقرب من موقع مدينة واشنطن الحالي، عندما كان متوجهًا إلى فيرجينيا لتحميل شحنة من التبغ. فقرر الاستقرار في مقاطعة ويستمورلاند، وتزوج آن بوب Anne Pope وهي ابنة رجل ذي شأن كبير وأحد أعضاء مجلس النواب بفيرجينيا، وهكذا حصل على سبعمائة أكر تطل على نهير بريدجز كريك، بالإضافة إلى رأس المال اللازم للبدء في زراعة تلك الأرض، ثم أصبح عضوًا في مجلس الكنيسة وفي مجلس النواب، وقاضيًا وعقيدًا بقوات الميليشيا، وساعد في إخماد ثورة بيكون في عام ١٦٧٦م. وعندما وافته المنية، كان يملك ما يزيد عن ثمانية آلاف أكر، تشمل ضيعة على نهير هانتينج كريك أعلى نهر بوتوماك، قيل إن مساحتها تصل إلى ألفين وخمسمائة أكر. وقد أصبح ذلك المكان موقع منزل جورج واشنطن (ماونت فيرنون)، الذي أصبح المحور الذي دارت حوله حياته، وقد قام هو نفسه بمسحه بدقة ووجد أن مساحته تصل إلى ٢١٢٦ أكرًا.

كانت عائلة جورج واشنطن عند ميلاده في ٢٢ فبراير/شباط من عام ١٧٣٢م عائلة ذات شأن تحظى باحترام شديد على مدار ما يزيد على ثلاثة أجيال، وما يقرب من قرن كجزء من طبقة الصفوة في فيرجينيا التي تتمتع بالاستقلال وتمارس حكمًا نيابيًّا (وإن كان غير ديمقراطي) في ظل النظام البرلماني الإنجليزي. ومن المهم إدراك أن جورج واشنطن كان ينظر إلى نفسه، منذ الصبا، كأحد أفراد طبقة حاكمة تدير شئونها بنفسها منذ أمد بعيد، أو كما يقول الإنجليز دائمًا: «منذ قديم الأزل». وهكذا كان أي تغيير من الخارج يُعد اعتداءً، ومقاومته واجبًا أخلاقيًّا وكذلك مصلحة شخصية.

رُزق والد جورج واشنطن، أوجستس Augustus أو جس Gus واشنطن، بعشرة أطفال من زوجتين، وهذا ليس بالأمر الغريب في القرن الثامن عشر في فيرجينيا التي كانت حينها مستعمرة ولود ومتقدة بالحماس، فزاد تعدادها السكاني من ١٢٥ ألف نسمة في ١٧٣٢م — العام الذي وُلد فيه

جورج واشنطن — إلى ما يقرب من نصف مليون نسمة في ١٧٧٥م — العام الذي أصبح فيه القائد العام للقوات. كان أوجستس، الذي تُوفي عندما كان جورج في الحادية عشرة من عمره؛ متوسط الحال رغم أنه كان يمتلك عشرة آلاف أكر وتسعة وأربعين عبدًا ويدير ست ورش للحدادة؛ كانت مقتنياته في منزله متواضعة: فكانت قيمة الفضيات التي يملكها تبلغ ١٢٥,١٠ جنيهًا استرلينيًّا (حيث كان الجنيه الاسترليني سائدًا في المستعمرات حتى نهاية سبعينيات القرن الثامن عشر)، وكانت تتكون من: ثمان عشرة ملعقة «صغيرة»، وسبع ملاعق شاي، وملعقة حساء، وساعة يد، وسيف ذي مقبض فضي. كما كان يمتلك مجموعتين من أطقم الشاي الصينية التي بلغت قيمتها ٣,٦ جنيهات استرلينيه، ومرآة رائعة للردهة، ومكتبًا أو «مكتبًا صغيرًا للكتابة» ومقعدًا بذراعين، وأحد عشر مقعدًا بقاعدة من الجلد، وثلاثة «مقاعد قديمة»، و«مكتبًا قديمًا وطاولة قديمة»، وثلاثة عشر سريرًا موزعة في المنزل، وستائر للنوافذ، وستة أزواج من الملاءات «الجيدة»، وعشر ملاءات أقل جودة، وسبعة عشر غطاء وسادة، وثلاثة عشر غطاء للمائدة، وواحدًا وثلاثين منديلًا للمائدة. وكان هناك من العبيد ثلاثة عشر يعملون داخل المنزل وخارجه، سبعة منهم قويو البنية (بالغين ويتمتعون بقوة بدنية). إلا أن أوجستس كان غنيًّا بما يكفي لإرسال ولديه أوجستس ولورانس إلى مدرسته القديمة «أبل باي» في شمال إنجلترا، التي كانت أفضل مدرسة في البلاد تحت إدارة ريتشارد ييتس Richard Yates الشهير. كما كان يطلب تفصيل ملابسه في إنجلترا، العادة التي اتبعها جورج حتى اندلاع الثورة. وقد كانت الحياة بين الطبقة الأرستقراطية في فيرجينيا بسيطة آنذاك؛ فذكرت مارثا Martha، زوجة جورج، وهي تستغرق في الذكريات في ١٧٩٨م، أنه لم يكن هناك إلا عائلة واحدة تمتلك عربة، وكانت السيدات يسافرن على ظهور الخيل، وكان تقديم ربع رطل من الشاي يُعد «هدية ضخمة». وكان أوجستس رجلًا أشقر ضخم البنية، وقد ورث عنه جورج هيئته، أما خلاف ذلك فلم يترك أوجستس إلا تأثيرًا ظاهريًّا طفيفًا على ابنه الشهير. وما قصة الفأس وشجرة الكريز إلا محض اختلاق (١٨٠٠م) وليد مخيلة أول

كاتب لسيرته، القس ويمز Parson Weems، الذي كان يعمل ببيع الكتاب المقدس. ولم يأت جورج واشنطن على ذكر والده في مراسلاته الخاصة التي تقع في آلاف الصفحات إلا مرتين فقط، لكن من ناحية أخرى، نجد أن والدته ماري بول Mary Ball — زوجة أوجستس الثانية التي كانت تمتلك ثروة اكتسبتها بنفسها — كانت شخصية مهيبة؛ وكان جورج يعاملها بكل احترام ممكن و«تحفظ». وقد أشار إليها على رءوس الأشهاد قائلًا: «أمي المبجلة، صاحبة اليد الحنون (بعد الحرمان المبكر من الأب) التي أخذت بيدي منذ الطفولة.» كما كتب أحد أبناء عمومته ورفيقه في المدرسة يقول: «كنت أخاف والدة جورج أكثر بكثير مما أخاف والداي ... وكنت كثيرًا ما أتواجد مع أبنائها، الذين كانوا طوال القامة أيضًا، لكننا كنا نجلس صامتين كالفئران.» لقد كانت شخصية «مسيطرة» اعتادت أن تأمر فتطاع.

كانت والدة جورج معمرة، فقد ظلت أرملة ستة وأربعين عامًا، وكانت شديدة التحمل ومغامرة، ولا تكل ولا تمل من أعمال عائلة ضخمة العدد. وقد ورث جورج عنها صحتها الجيدة وقدرتها على تحمل الشدائد العظيمة، في حين ورث عن أبيه مظهره الخارجي. ويتضح من المقاسات التي كانت تُرسل إلى الحائك الخاص به في لندن، والتي أُخذت من أجل صنع التابوت بعد وفاته، أن طوله كان يبلغ ستة أقدام وثلاث بوصات، وهو ضخم بالنسبة لمتوسط الأطوال في القرن الثامن عشر. لكنه لم يكن بدينًا على الإطلاق؛ فقد كان رشيق القوام مستقيم المنكبين وعريض الفخذين، ويزن ما يقرب من ٢٢٠ رطلًا، كما تعلم أن يكون راقصًا رشيقًا ومتحمسًا. وقد كان قوامه، بطريقة ما، هو مفتاح نجاحه في قيادة الرجال، فلم يكن يحتاج إلى الصياح كي ينصاع الآخرون لأوامره، إلا في وجود جلبة أو في معمعة المعركة، حيث يذكر شهود عيان أنه لم يكن يصيح فقط، بل كان يلهب أظهر الجبناء من الضباط الذين كانوا يهرعون إلى مكان آمن مستخدمًا عصاه أو حتى السوط (وقد كان أوليفر كرومويل Oliver Cromwell يفعل مثل ذلك). لكن بصورة عامة كان صوته الهادئ والمتأني والمنتظم — واللين في بعض الأحيان — كافيًا. يقول بنيامين لاتروب

Benjamin Latrobe — ضابط معاون سابق ورسام قوي الملاحظة: «كانت مشية جورج واشنطن وسلوكه وبنيته وملامحه تتسم بشيء من المهابة والقوة الاستثنائيتين.» كما كتب عنه صديقه الفرنسي، ماركيز دي لافاييت Marquis de la Fayette: «لقد كان له أضخم يدين رأيتهما على الإطلاق.» وكان يمكنه «أن يقذف بقطعة من الحجارة لمسافة هائلة.» كما كان يحب أن يلعب البيسبول، ومن الغريب أنه اشترك في شغفه باللعبة مع عدوه اللدود جورج الثالث George III (الذي أطلق على اللعبة بشكلها الإنجليزي اسم «راوندرز»). وقد وصف ابن زوجته، جاكي كرتيز Jacky Curtis، بشرته بأنها «شقراء لكن متوردة للغاية»، وكان شعره أحمر أو ضارب إلى الحمرة إلى أن فقد لونه.

لا نعرف تحديدًا أين ولد، وقد زعمت الحكومة الأمريكية في الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية في عام ١٩٣٢م، أنها تمكنت من تحديد مسقط رأسه والمنازل التي عاش بها قبل أن يستقر في مزرعة ماونت فيرنون حيث قضى بقية عمره، إلا أنه لا يوجد أي دليل على مثل ذلك الادعاء، وقد يكون خاطئًا. لكن من المؤكد أنه وُلد بالقرب من نهير بوبس كريك في منطقة واشنطن بمقاطعة ويستمورلاند. وقد سُمي جورج تيمنًا باسم الوصي على أمه أو اسم جورج الثاني (وهو الرأي الأرجح عندي). ولا نعرف أي شيء تقريبًا عن حياة جورج واشنطن حتى بلوغه سن الحادية عشرة حين توفي والده، الذي اختار ألا يرسله إلى مدرسته القديمة في إنجلترا — على الأرجح لعدم قدرته على تحمل نفقاته، واتضح أن جورج واشنطن لم يرحل عن وطنه أمريكا إلا مرة واحدة، الأمر الذي جعله يشعر بأسى شديد. فقد كتب فيما بعد عن «الرغبة الشديدة، التي غمرتني طوال سنوات عدة لأن أزور العاصمة العظيمة لتلك المملكة … لكنني الآن مقيد القدمين ويجب أن أنحي تلك الرغبة جانبًا.» وفي هذا الشأن، أي السفر، كان جورج واشنطن ضيق الأفق، لكن ليس بالقدر نفسه الذي كان عليه عدوه جورج الثالث، الذي لم يغادر إنجلترا قط — ولو إلى «هانوفر» التي كان ملكًا متوجًا عليها — والذي لم يرَ البحر حتى وصل إلى منتصف العمر.

وقد تلقى جورج تعليمه داخل الأسرة أو في الضيعة في إحدى مدارس هنري ويليامز. ويتضح من دفاتره وشهادة معلميه أنه تعلم إلى جانب قواعد اللغة الإنجليزية الحساب ومسك الدفاتر والجغرافيا والهندسة وحساب المثلثات ومسح الأراضي. وأصبح خطه في الكتابة واضحًا تمامًا ومقروءًا — أكثر الخطوط وضوحًا بين الآباء المؤسسين — وظل كذلك. ولم يقدره توماس جيفرسون Thomas Jefferson وجون آدامز John Adams حق قدره لاعتقادهما بأنه ذو تعليم محدود للغاية، ذلك مع أنه كان يمتلك عند وفاته مكتبة تحتوي على ٧٣٤ كتابًا، اشتراها جميعًا بنفسه وقرأها أو اطلع عليها أو تصفح أجزاءً منها. وقد كان تعليمه النظامي عمليًّا بقسوة، لكنه استوعبه جيدًا. وعلى غرار معاصره الأصغر منه نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte، كان جورج متميزًا في الرياضيات ويتمتع بموهبة في التعامل مع اللوجستيات، وكانت سجلاته دائمًا محل ثقة (على عكس سجلات توماس جيفرسون، التي كانت غالبًا غير متسقة أو تبدو غير منطقية بالرغم من غزارتها). لقد ضلل جون آدامز John Adams الجميع عندما سخر من جورج واشنطن قائلًا: «لا شك أن جورج واشنطن لم يكن عالمًا، وكذلك مما لا خلاف عليه أنه لم يكن متعلمًا أو مطلعًا أو مثقفًا بدرجة تتماشى ومنصبه.» فقد ثبت أن التعليم الذي تلقاه جورج واشنطن كان ملائمًا جدًّا لكل من الحياة المدنية والعسكرية على حد سواء. فكان تعلمه لمسح الأراضي والجغرافيا يعني أنه أصبح خبيرًا في قراءة الخرائط مثل بونابرت، وهو إنجاز لم يصل إليه إلا قليل من كبار الضباط في أية دولة، ومهاراته اللوجستية التي اكتسبها في شبابه تعني النجاح المستمر في إدارة المزارع المتباعدة — عندما كان هناك — وكذلك في إدارة جيشه غير المنظم، فأنزل بذلك الهزيمة بدولة كبرى في ميدان المعركة، وأصبح أحد أغنى اثني عشر مالك أرض في البلاد.

هناك الكثير من الشواهد على مدى جدية جورج في صباه وإصراره على النجاح، حتى إنه — بعد وفاة والده الذي كان معلمه المخلص الذي يرشده إلى الأخلاق النبيلة — حصل على كتيب يحتوي على ١١٠ قاعدة

سلوكية جمعه اليسوعيون — وهم المعلمون المبجلون للشباب — لكنه تشبع بالصبغة الإنجليزية ثم الأمريكية في ترجمات مختلفة، ونسخه. وقد كان من ضمن تلك القواعد: «لا تدندن لنفسك بضوضاء مزعجة، ولا تقرع بأصابعك أو بقدميك»، و«لا تقتل الحشرات، كالبراغيث والقمل والقراد وغيرها، أمام الآخرين»، و«عندما تكون بصحبة شخص ذي مكانة عظيمة، فلا تَسِرْ بمحاذاته، بل تأخر عنه بعض الشيء لكن بمسافة تسمح له بالتحدث إليك بسهولة.» وكانت عادة اختزال أخلاق النبلاء في مجموعة من القواعد من سمات القرن الثامن عشر، كما يوضح أدباء مثل توبياس سموليت Tobias Smollett، وبنيامين فرانكلين Benjamin Franklin، ودينيس ديدروت Denis Diderot. إن الحقيقة الرئيسية في شخصية جورج واشنطن هي كونه نموذجًا واضحًا لسمات رجل القرن الثامن عشر؛ فقد وُلد في العام نفسه الذي وُلد فيه اثنان من أعظم أنصار ثقافة القرن الثامن عشر، ألا وهما: فراجونار Fragonard، وهايدن Haydn. فكان قادرًا على التكيف مع أي ظروف ويستطيع العيش في جميع العصور، إلا أنه من المستحيل أن يكون قد توقع الحركة الرومانسية التي ازدهرت في القرن التاسع عشر، ولم يقرأ كتابات روسو Rousseau أو أية كتابات أدبية بعد بوب Pope وأديسون Addison الذي كان مؤلف مسرحيته المفضلة Cato.

لكن جورج واشنطن لم ينظر أيضًا خلفه إلى القرن السابع عشر والحماسة الدينية التي سادت حينذاك. وقد أصبح عضوًا في مجلس الكنيسة عندما بلغ، حسبما يليق بمكانته لما يمتلكه من أراضٍ، لكن انضمامه لذلك المجلس كان لأسباب اجتماعية. ويعكس سجل حضوره في الكنيسة، الذي يظهر نسبة تصل إلى ٥٠٪ أو أقل، أنه كان يحضر بدافع اللياقة وليس الحماسة. وقد كتب إلى صديقه بورويل باسيت Burwell Bassett ذات مرة مازحًا: «سينشرح قلبك إذا ما رأيت الحماسة الدينية التي أهرع بها إلى الكنيسة كل يوم أحد.» لكنه لم يكن يطيق المواعظ الطويلة، ولم يقرأ في حياته أية كتابات دينية، كما أنه لم يأتِ على ذكر «المسيح» في أي من مجلدات مراسلاته العشرين، ولم يظهر اسم «يسوع» في أي من الخطابات

المتبقية من فترة شبابه، ولم يرد سوى مرتين فقط في الخطابات التي تلت تلك المرحلة. كما أنه استخدم مصطلح «العناية الإلهية» أكثر من «الإله»، لكنه لم يكن غير مبال بالمسيحية قط — بل على النقيض كان يعتبرها عنصرًا أساسيًّا من عناصر السيطرة الاجتماعية والحكومة الجيدة — لكن فكره وعواطفه جعلاه يميل أكثر إلى الماسونية، التي ظهرت بديلًا عن العقيدة الرسمية، والتي كان انتشارها بين الذكور من الأنجلوساكسونيين سمة من سمات القرن الثامن عشر. ولم تظهر الماسونية في المستعمرات إلا قبل ثلاث سنوات فقط من ميلاده. وتأسس أول محفل ماسوني حقيقي في أمريكا في عام ١٧٣٤م في فيلادلفيا، حيث تولى فرانكلين رئاسته. وقد أصبح جورج واشنطن على دراية بالسمات الظاهرة للماسونية وهو صبي، وقد نُصِّبَ ماسونيًّا مبتدئًا في محفل فريدريكسبرج في عام ١٧٥٢م عندما بلغ العشرين من عمره. وبعد ذلك لعبت الماسونية، مثلما فعلت مع العديد من الآباء المؤسسين؛ دورًا مهمًّا — وإن كان غير ملحوظ — في حياته. وفي الحقيقة، تُعتبر الماسونية أحد أحجار الأساس الفكرية للثورة، وقد سمح جورج واشنطن للمحافل الماسونية بالازدهار في العديد من معسكراته في الحروب، فقد كانت حلقة الاتصال بالفكر المتقدم في فرنسا، وعندما زاره لافاييت Lafayette في عام ١٧٨٤م، أهداه مريلة ماسونية مصنوعة من قماش الساتان الأبيض التي طرزتها زوجة الماركيز بنفسها. وقد أقسم جورج واشنطن يمين توليه رئاسة الولايات المتحدة على الإنجيل الماسوني، كما استدعى محفلي ميريلاند وفيرجينيا عند وضع حجر الأساس لمبنى الكونجرس الأمريكي في عام ١٧٩٣م. وبالطبع كان الستة الذين حملوا التابوت في جنازته من الماسونيين، وأُقيمت مراسم تأبينه وفقًا للطقوس الماسونية.

كما يعكس جورج واشنطن أعمق سمات القرن الثامن عشر في جانبين آخرين من شخصيته، ألا وهما: إيمانه بأهمية وقيمة الأرض، ومفهومه عن «المصلحة». لقد كان جنديًّا وسياسيًّا، لكنه كان في المقام الأول من النبلاء ملاك الأراضي، وهذا هو ما كان يصبو إليه، بل يمكن القول إن هذا هو

كل ما تمناه. وكان هناك قول سائد في عصره يقول: «قد يمنحك الملك لقب «نبيل»، لكن الإله وحده (والأرض) يمكنهما أن يجعلا منك رجلًا نبيلًا.» ولم يكن جورج واشنطن يميل إلى المصافحة؛ إذ اعتبرها عادة فظة من عادات المدينة، وسلوك «شخص مواطن»، وهي كلمة تسللت من باريس، فهو لم يعتبر نفسه مواطنًا قط. وكان ينحني عند تحية أي شخص، وما أروعها انحناءة! إيماءة تدل على لباقة تنم عن تفكير عميق. ولم يرتد شعرًا مستعارًا قط، لأنه رأى أنه غير جذاب ومزعج، لكنه مع ذلك كان يتأنق في ارتداء الملابس كأحد ملاك الأراضي الإنجليز الأثرياء، ويضع المسحوق على شعره بأناقة، ويربطه بشريط ناعم يُسمى سوليتير. ويُقال إنه كان «يعتني بأرضه»؛ إذ كان يعتبر الحقيقة الأساسية في الحياة الاقتصادية هي أن الأرض أكثر الممتلكات قيمة، فهي تجلب الاحترام وحتى النفوذ، بالإضافة إلى الراحة، كما أنها «السلعة التي غالبًا ما تزداد قيمتها».

وكان مفهوم «المصلحة» وثيق الصلة بالممتلكات الفعلية، وكان مفهومًا آخر من مفاهيم القرن الثامن عشر التي كانت تسيطر على ذهنه. وكانت المصلحة هي الصلات — سواء من خلال الروابط الأسرية أو الصداقات أو العلاقات المحلية أو العشيرة — التي تجعل المرء متقدمًا على منافسيه في الحصول على ما يرغب فيه، من مكان أو ترقية أو عقد أو خدمة. كما كانت هي مفتاح «النجاح» وتحقيق المكاسب والرقي في المنزلة وزيادة الدخل، سواء في إدارة عامة أو منشأة خاصة، أو في الجيش أو البحرية، أو مع القانون، أو في الصفقات التجارية. قد ينجح شخص فريد من نوعه مثل فرانكلين دون اللجوء إلى المصلحة، لكن بالنسبة للجميع، فيما عدا أبرعهم وأكثرهم اجتهادًا، فإنها تمثل عاملًا أساسيًّا، وبدونها تدهس طاحونة الحياة الإنسان دهسًا. كما كانت المصلحة تعني حافزًا أيضًا؛ وقد استخدم جورج واشنطن ذلك المصطلح مرارًا وتكرارًا في خطاباته وغيرها من كتاباته، مما عكس غياب النزعة العاطفية والمثالية التي ميزت القرن الثامن عشر. وقد أطلق عليها جورج واشنطن «الرباط الإسمنتي الأوحد»؛ فقد كتب يقول: «يمكن أن يتحدث الرجال عن الوطنية ... لكن من يعتمد

عليها بوصفها أساسًا كافيًا لخوض حرب طويلة ودموية سيكتشف في نهاية الأمر أنه وقع ضحية للخداع ... فالوطنية وحدها يمكنها أن تحث الرجال على العمل لفترة مؤقتة، أو تحمل المزيد من الأعباء، أو مواجهة الصعاب؛ لكنها لن تدوم دون أن تساعدها المصلحة.» ربما يتطوع الجنود الثوار بدافع حبهم لوطنهم، لكنهم يستمرون في القتال بدافع حب المال والترقيات. وهكذا حال الأمم، فقد تُوحد أمتان جهودهما لوجود أيديولوجية مشتركة، لكن إذا لم يكن بينهما مصلحة مشتركة، فإنهما سرعان ما تنفصلان فور تعارض مصالحهما. وقد كان ذلك هو المبدأ الذي وجه السياسة الجغرافية لجورج واشنطن. ويجب أن ندرك أنه كان يرى الثورة نفسها وعملية وضع الدستور التي تلتها كممارسات تقودها في المقام الأول المصلحة الشخصية. لقد كانت المصلحة دائمًا وأبدًا هي القوة الدافعة له، ولم يجد خجلًا في ذلك. وبالطبع نجد أنه سعى خلف مصلحته بقوة حتى أصبحت جزءًا من المصلحة القومية.

وقد انحصرت اهتماماته في الأرض والمصلحة، كيف يحصل عليهما؟ لقد ترك والده — عند وفاته في عام ١٧٤٣م — قطعة أرض شاسعة متناثرة عبر أربع مقاطعات بفيرجينيا بالإضافة إلى ميريلاند. وقد قُسمت تلك الأرض على أبنائه الخمسة الأحياء بموجب وصية معقدة. فحصل جورج واشنطن — الذي كان يبلغ الحادية عشرة من عمره حينذاك — على ثلاث قطع من الأرض في فريدريكسبرج، اثنان منها تشمل منازل؛ وقطعة أرض تمتد على مساحة خمسة آلاف أكر على نهر ديب رن، بالاشتراك مع أخيه صمويل؛ والمزرعة التي كان يقيم فيها والده على نهر راباهانوك. ولم يكن واشنطن يفتقر إلى الأراضي، لكن المشكلة كانت تكمن في كيفية استغلالها بفعالية بحيث تدر دخل سيد من النبلاء. وقد عُهد بالوصاية عليه إلي أخويه غير الشقيقين أوستين ولورانس. وقد كانا متزوجين ويمتلكان ضياعًا شاسعة، حيث ورث لورانس عن والده مزرعة ومنزلًا على نهر بوتوماك أعاد تسميتهما ليصبح اسمهما ماونت فيرنون تيمنًا باسم فريق أول بحري خدم تحت قيادته في جزر الهند الغربية.

وكان لورانس أكثر شخص مؤثر في فترة شباب جورج واشنطن. وقد استغل نقص ضباط بريطانيا في أثناء حرب الخلافة النمساوية — بعد أن نعمت بسنوات طويلة من السلام في عهد سير روبرت والبول Sir Robert Walpole — للحصول على وظيفة منتظمة في الجيش. ومع أن مرض السل قد جعل فترة خدمته محدودة، فقد ظل يتلقى نصف راتبه حتى وفاته. وقد منح مرضه ذلك جورج واشنطن الفرصة الوحيدة للسفر إلى الخارج، حيث رافقه إلى جزر الهند الغربية للتعرض لأشعة الشمس. وتعرض جورج في أثناء تلك الرحلة للإصابة بمرض الجدري لكنها لم تستمر وقتًا طويلًا ولم تترك أي آثار دائمة. وقد شعر لورانس بالامتنان لمؤازرة جورج له، فجعله وريثًا له، كما منح الشاب أولى نفحات مبدأ «المصلحة» القوي. وقد نشأ هذا عن زواج لورانس في عام ١٧٤٣م من آن فيرفاكس Anne Fairfax، ابنة ويليام فيرفاكس William Fairfax الذي كان يمتلك «مزرعة بلفوار» وهي الضيعة التالية أسفل نهر بوتوماك. والأهم من ذلك أن فيرفاكس كان الوكيل الأمريكي للورد فيرفاكس السادس Lord Fairfax، الذي كان يملك مساحات شاسعة من الأراضي في «المستعمرات الوسطى» التي قد منحها إياه تشارلز الثاني Charles II. وقد أصبح لورد فيرفاكس، بموجب قرار مجلس شورى الملك في ١٧٤٥م، يملك ٨١٠٠ ميل مربع من فيرجينيا — وهي مساحة تزيد عن مساحة بلجيكا — تمتد من قرب مكان ميلاد جورج واشنطن إلى ينابيع نهري بوتوماك وراباهانوك في سلسلة جبال الليجاني.

كان لذلك القرار القانوني أثرًا رئيسيًّا على حياة جورج واشنطن، فكان من الواضح أن حما لورانس، ويليام فيرفاكس، يعتبر مصدر مصلحة لجورج لكونه وكيل تلك المساحات الشاسعة من أراضي اللورد فيرفاكس. فكان عليه أن يعين مساحي أراضي حتى يستطيع وضع خرائط للأراضي ويسجلها بالتفصيل ويجزئها. وكان جورج واشنطن بما له من مهارة في الرياضيات قد بدأ بالفعل يسير في ذلك الاتجاه. كما أنه فكر في المهن الأخرى التي من الممكن أن يشغلها، ومنها الالتحاق بالبحرية الملكية كضابط صف، وعلى ما يبدو أنه حصل على وظيفة على بارجة حربية بفضل عائلة

فيرفاكس. ومن الغريب أن نابليون بونابرت، معاصر جورج واشنطن الأصغر سنًّا، قد فكر هو الآخر في طفولته في كورسيكا في الالتحاق بالبحرية البريطانية. ولم يختلف سبب التخلي عن الفكرة عند كليهما، ألا وهو غياب المصلحة؛ فالتطوع كضابط صف يختلف تمامًا عن أن تصبح «ملازم أول بحري»، وهي الخطوة الأولى للترقي في سلك البحرية. فقد يظل المرء يعمل ضابط صف عشرين سنة أو أكثر إذا لم يكن لديه نفوذ في البحرية. وكان البديل المتاح أمامه هو الالتحاق بالأسطول التجاري، وقد فكر في هذا أيضًا. لكن ماري بول واشنطن، التي لم ترق لها فكرة عمل ابنها في البحر، أرسلت إلى أخيها غير الشقيق جوزيف بول Joseph Ball — الذي كان يقيم وقتها في إنجلترا — تطلب منه النصيحة، وجاء رده (في ١٩ مايو/أيار ١٧٤٦م) حاسمًا. فكتب إليها يقول إن عمل جورج واشنطن في الأسطول التجاري سيجعله معرضًا باستمرار لخطر إكراهه على الخدمة العسكرية، وهي الوسيلة القانونية التي كانت تلجأ إليها البحرية الملكية لتزويد سفنها بالجنود. «فستقيده البحرية وتشد وثاقه وتستخدمه كعبد زنجي، بل كالكلب. أما بالنسبة لشغله لمنصب رفيع في البحرية، فدائمًا ما تكون مطمعًا للكثيرين من أصحاب النفوذ، وهو ليس له نفوذ.»

وهكذا تقرر أن يبدأ جورج واشنطن في العمل بجدية في مسح الأراضي. وقد خضع لدورة تدريبية في مسح الأراضي من أغسطس/آب ١٧٤٥م إلى مارس/آذار ١٧٤٦م، ولا تزال آثار أعماله باقية، في المخططات التمهيدية والنهائية، فنجد خرائط تقريبية دقيقة وجميلة لممتلكات تعكس مثابرة ذلك الشاب المراهق وحماسته. لقد كان من الجلي أن جورج واشنطن يتمتع بموهبة فطرية في مشاهدة المناطق ووضع رسم ثنائي الأبعاد لها. وفي عام ١٧٤٧م، وصل اللورد فيرفاكس بنفسه وبدأ العمل بجدية في فحص أملاكه مترامية الأطراف، ثم واديه من ورائها. وقَبِل كبير مساحي الأراضي لدى فيرفاكس، جيمس جين James Genn، أن يعمل جورج واشنطن معه لمهارته، وأكمل تدريبه عن طريق تدريب عملي غير مدفوع الأجر تحت إشراف جيمس جين وجورج فيرفاكس، شقيق زوجة لورانس.

وبدءًا من تلك المرحلة التي شهدت أول رحلة لجورج واشنطن من منزله إلى الجبال وما وراءها، يتجسد لنا ذلك المراهق — الذي كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا عندما شرع في رحلته — شخصًا حقيقيًّا. فبدأ يحتفظ بدفتر ليومياته بداية من الحادي عشر من مارس/آذار ١٧٤٨م، وهي عادة حافظ عليها طوال حياته (مع وجود فترات فاصلة). إن إظهار حرص جورج، الذي أخذ معه كميات هائلة من الملابس في رحلة إلى البرية، على توافر عوامل الرفاهية له معنى دلالي أكثر من كونه يكشف سرًّا غامضًا عنه. (في الواقع، توضح «مذكرة» بخط يديه تعود لتلك المرحلة — تقريبًا ١٧٤٩م — تعليمات دقيقة تدل على الرفاهية فيما يخص الطريقة التي يرغب في أن يُصنع بها معطف السهرة الطويل.) كما كتب يقول:

> «تناولنا عشاءنا، ثم تم إرشادنا إلى غرفة ما، ونظرًا لأنني لم أكن معتادًا مثل رفاقي على الإقامة في الغابات، انسحبت بهدوء وتوجهت إلى ما يطلقون عليه سريرًا، لكنني فوجئت بأنه عبارة عن مجموعة صغيرة من القش المتشابك دون ملاءات أو أي شيء آخر، إلا من غطاء يحمل بين طياته ضعف وزنه من الحشرات، مثل القمل والبراغيث وغيرها ... ومنذ ذلك الوقت، قطعت على نفسي عهدًا ألا أنام على هذا الحال، وفضلت النوم في الهواء الطلق بجانب النار ...»

وقد منحت تلك الرحلة جورج واشنطن فرصته الأولى للاحتكاك بالهنود عن قرب «لقد كانت مفاجأة سارة أن نرى ثلاثين هنديًّا تقريبًا عائدين من الحرب حاملين فروة رأس واحدة فقط. فقدمت لهم المجموعة الشراب الذي أنعشهم وولد لديهم رغبة في الرقص، فأدوا رقصة للحرب.» ووصف الحركات الراقصة والآلات الموسيقية بالتفصيل، لكن دون تعليق. من المهم أن نعرف أن جورج واشنطن عامل الهنود، في ذلك الوقت وكذلك في المستقبل، كحقيقة من حقائق الحياة الأمريكية — التي كان سلخ رءوس الأعداء واحدة

فقط من سماتها — أكثر من اعتبارهم فرصة لإبداء الأحكام الأخلاقية، سواء مؤيدة أو معارضة.

ومع ذلك، كان لدى جورج واشنطن حقيقة أساسية فيما يتعلق برؤيته للعالم، التي كانت قد بدأت تبرز بالفعل، ألا وهي أنه لا سبيل إلى السماح للهنود بعرقلة عملية توسع الاستيطان الأمريكي غربًا. ولم يعترض قط على تعاون الهنود مع المستوطنين ومشاركتهم لهم في التكنولوجيا المتقدمة ومستوى المعيشة الأفضل. لكن لم يطرأ على ذهنه قط أن للقبائل حقوقًا طبيعية في وجه اختراق البيض لأراضي الصيد الخاصة بهم، بل يبدو أنه كان يرى أن الحق «الطبيعي» والحتمي هو توغل البيض في المناطق الداخلية والاستحواذ عليها واستغلالها باستخدام جميع موارد وأساليب الزراعة الحديثة.

في حقيقة الأمر، جعلت تلك المغامرة الأولى إلى المناطق الداخلية من واشنطن غربيًّا حتى النخاع. وقد ظهر اتجاهان بين المستعمرين منذ بداية الاستعمار الأوروبي لأمريكا على يد إسبانيا عام ١٤٩٢م. وقد قنع أصحاب أول هذين الاتجاهين — وكانوا يمثلون الأغلبية — بانتهاج الطريق السهل والأكثر أمنًا المتمثل في التشبث بالقطاع الساحلي، والاستفادة منه بزراعته، وتصدير المحاصيل، واستيراد جميع المنتجات الأخرى من أوروبا، بما في ذلك المنتجات الصناعية، ذلك علاوة على الحفاظ على أقرب نقاط اتصال بحرية ممكنة مع الدولة الأم. أما الاتجاه الآخر فكان أصحابه يقولون بالتقدم إلى المناطق الداخلية والاستحواذ على الدولة بأكملها، مع الحد من العلاقات مع أوروبا أو تجاهلها، أو قطعها إذا ما دعت الحاجة؛ وخلق مجتمع جديد تمامًا يتمتع بالاكتفاء الذاتي والاستقلالية والتميز. وكانت المستعمرات اللاتينية بأمريكا الجنوبية والوسطى تميل إلى تبني الاتجاه الأول، مدفوعين إلى حد ما بطبيعة المناطق الداخلية التي لا تصلح للحياة بها، والسياسات التي تتبناها الحكومات الأم التي حاولت فرض أكبر سيطرة ممكنة على ما يفعله المستعمرون وأماكن استقرارهم. ولذلك، كان لتلك المدن علاقات رئيسية مع أوروبا، التي كثيرًا ما تكون هي علاقاتها الوحيدة، بدلًا من أن

يرسخوا علاقات فيما بينهم. وظلت المناطق الداخلية غير مأهولة إلى حد بعيد، وهكذا، كانت أمريكا اللاتينية ذات حضارة ساحلية. وقد بقيت تلك السمة بعد تدمير الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية، وحتى بعد بزوغ عصر التصنيع، وعزز تلك السمة تطور نظام تجاري عالمي. وحتى في عصرنا هذا، نجد أن الكثير من دول أمريكا اللاتينية تربطها بأمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا علاقات اقتصادية وغير ذلك أقوى من العلاقات التي تربطها بدول الجوار. ويوضح هذا النموذج وهذا التفضيل المبكر والمستمر في انتهاج الطريق السهل، سبب التطور البطيء والمحدود نسبيًّا لأمريكا اللاتينية. وقد كان النموذج ذاته يتطور في كندا — باعتبارها مستعمرة فرنسية — على ضفاف نهر سانت لورانس، ومع أن المستكشفين الفرنسيين توغلوا في وادي المسيسيبي، فقد فعلوا ذلك أساسًا بصفتهم مبعوثين من الدولة الفرنسية وليس كأفراد عازمين على الاستقرار وتأسيس دولة جديدة.

وعلى النقيض، خرج المستوطنون الإنجليز — الذين أصبحوا فيما بعد البريطانيين — في كل من نيو إنجلاند وفيرجينيا والمستعمرات الوسطى وكارولينا الشمالية والجنوبية، معتمدين على أنفسهم دون حماية الحكومة. فأقاموا المؤسسات النيابية الخاصة بهم على الطريقة الإنجليزية، وبدءوا في إدارة شئونهم الخاصة بأنفسهم من البداية. ولم تقدم إليهم حكومتهم أية مساعدة، لكنها أيضًا لم تقم بأية محاولات لفرض سيطرتها الكاملة، وبخاصة في نصف القرن الأول. وقد كان حكام المستعمرات المختلفة يحكمون بموافقة السكان المحليين مع أن تعيينهم جاء من قبل الحكومة بلندن. علاوة على ذلك، كان عدد المستعمرين الوافدين هائلًا، واستقروا بصورة نهائية وعملوا بجد في الزراعة. ففي نيو إنجلاند على وجه الخصوص، جرى استيطان مقاطعات بأكملها مع اندماج الهنود أو انتقالهم غربًا.

وفي فيرجينيا والمستعمرات الوسطى وأقصى الجنوب، ساد توجه نحو انتهاج الطريق السهل والقبول بالاستقرار على الساحل. فكان بإمكان المزارع أن يجني محصول التبغ الذي زرعه ويحمله من رصيف الميناء الخاص به، بجوار منزله أو مزرعته، مباشرة إلى السفينة التي تحمله إلى إنجلترا.

وكانت السفينة ذاتها تحضر سلعًا كمالية وأساسية. فكان صاحب المزرعة يحصل على قائمة بالمنتجات يختار منها طلبه، ثم يتسلمه في الرحلة التالية، وتحمل السفينة شحنة التبغ في المقابل. كان ذلك النظام بدائيًّا، لكنه كان ملائمًا ويشبه نظام المقايضة، حيث تُجرى جميع المعاملات بالدفع الآجل، فقضى ذلك على الحاجة إلى المدن ذات الأسواق الضخمة، وحال بذلك دون التنمية الحضرية. ومرة أخرى، كان ذلك النظام يمثل الطريق السهل أو المريح للمزارع، لكنه بالطبع كان يصب في مصلحة التاجر الرأسمالي في لندن، الذي سرعان ما أصبح المزارع مدينًا له وظل كذلك طوال حياته، وكان وارثه يرث عنه المزرعة والنظام والديون.

وقد وجه جوزيف بول نصيحة حكيمة حول النظام إلى أخته غير الشقيقة، والدة جورج واشنطن، في خطاب أرسله إليها إذ قال لها، وهو من يكره البحر، إن المزارع يمكنه أن يعيش حياة أفضل من حياة ربان السفينة إذا عمل بجد. لكن عليها وعلى ابنها جورج، إذا ما أصبح مزارعًا، أن يتوخيا الحذر؛ «فعليه ألا يرسل محصوله من التبغ إلى إنجلترا ليباع (هناك) مقابل حصوله على البضائع، لأنه إذا فعل ذلك سرعان ما سيقع فريسة في شباك الديون للتاجر ولن يخرج منها أبدًا.» فنصحه بطرحه في السوق والتحلي بالصبر: فيجب عليه «ألا يتطلع إلى أن يصبح سيدًا نبيلًا قبل الأوان.» وهناك أدلة تشير إلى أن واشنطن لم يتبع تلك النصيحة بحذافيرها، لكنها جعلته يفكر، وكان قد بدأ تدريجيًّا يكتسب عادة التفكير العملية، التي كانت سر نجاحه في الحياة. وقد حفزته الرحلة إلى المناطق الداخلية هي الأخرى على التفكير. ومثلما كان التعامل حصريًّا مع تاجر إنجليزي هو طريقة العيش السهلة — التي أثبتت بعد ذلك أنها حمقاء — كذلك كان التشبث بالأراضي الساحلية وعدم التوغل حتى إلى سفوح الجبال، ناهيك عن التوغل إلى ما وراء تلك الجبال إلى سهول المناطق الداخلية المترامية الأطراف. لم يعرف واشنطن — وهو في السادسة عشرة من عمره — مدى اتساع المناطق الأمريكية الداخلية فحسب، بل أيضًا كيف يقيّم جودة الأراضي بها ويحدد مدى إمكانية استغلالها. وكان جليًّا بالفعل أن الزراعة الكثيفة

للتبغ في الأراضي الساحلية سرعان ما أجهدت التربة، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى تحسين الزراعة بطريقة علمية أو التوسع غربًا في الحصول على الأراضي — والأفضل كلاهما. لقد رأى واشنطن بأم عينيه — شريطة أن يكون شخصًا يتغاضى عن أي حقوق افتراضية للهنود — أن هناك وفرة في الأراضي التي يمكن الاستحواذ عليها. لكن هذه الوفرة كانت تتوقف على أمرين: أولهما، القضاء على أي تهديد خارجي تفرضه الحكومات الأجنبية وسياساتها الاستيطانية القومية على امتلاك هذه الأراضي؛ وثانيهما، غياب أية محاولات من جانب الحكومة الأم للتدخل في الحرية المطلقة للمستوطنين الإنجليز في الاستغلال الكامل للآفاق غير المحدودة التي تقع في اتجاه الغرب؛ فقد كانت الحدود الشمالية والجنوبية لفيرجينيا قد تحددت بالفعل في عصر واشنطن. أما في اتجاه الغرب، فلم يكن هناك حدود إقليمية — إلا إذا سعت الحكومات الفرنسية والإسبانية لفرض حدود بالقوة، أو سعت الحكومة الإنجليزية لفرضها بقوة القانون. وخلاف ذلك، كانت الحدود الغربية لفيرجينيا تمتد عبر القارة، حتى تصل إلى حدودها الطبيعية على المحيط الهادئ. لقد كانت الآفاق التي فتحتها رحلة جورج واشنطن الأولى إلى المناطق الداخلية هي رؤية فيرجينيا غنية بالأراضي، وممتدة لمساحات مترامية الأطراف تمتد من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادئ. لقد رأى رؤيا آنذاك وهو في السادسة عشرة من عمره، وقضى المرحلة التالية من حياته وهو يعمل ويحارب القوى التي هددت تلك الرؤيا.

الفصل الثاني

عقيد شاب شجاع وزوجة ثرية

عاصر واشنطن المرحلة التي وقع فيها الصراع الأخير لتحديد من سيحكم قارة أمريكا الشمالية، هل هم الإسبانيون أم الفرنسيون أم الناطقون باللغة الإنجليزية؟ لقد كانت أمريكا الشمالية تمتد عبر مساحات شاسعة، تتكون معظمها من أراضٍ زراعية ممتازة يقطنها عدد قليل من الصيادين الهنود الذين سرعان ما تضاءل عددهم أكثر بسبب تفشي مرض الجدري بمجرد وصول الأوروبيين. وكان لا بد من رسم خريطة لتلك الأراضي ومسحها من أجل الفوز بثرواتها التي لا تُحصى، إلا أن الحصول على تلك الثروات كان يستلزم القتال من أجلها. وقد كان واشنطن هو الشخص النموذجي في كلا المجالين: باعتباره يعمل في مسح الأراضي في وظيفته الأولى، ثم جنديًّا في وظيفته الثانية.

وقد تأسست فيرجينيا، أول مستوطنة إنجليزية دائمة (١٦٠٧م)، قبل أول مستوطنة فرنسية في كندا بعام واحد فقط. لكن الصراعات، التي كانت متقطعة وفي بعض الأحيان ضارية، نشبت بعد ذلك بين الأمتين في أمريكا الشمالية واستمرت مدة ١٥٠ عامًا. وقد دحر البريطانيون الهولنديين، الذين كانوا أحد كبار المنافسين المحتملين في وقت من الأوقات، في عام ١٦٦٧م حين تحولت نيو أمستردام إلى نيويورك. وعند ميلاد واشنطن في عام ١٧٣٢م، كان الإنجليز قد سيطروا على الخط الساحلي لأمريكا الشمالية بالكامل، الذي يمتد من ولاية ماين إلى كارولينا الجنوبية. وفي ذلك العام، زاد الإنجليز في توغلهم جنوبًا عندما أسس جيمس أوجليثورب James Oglethorpe جورجيا وقام

بتوسيع رقعتها بمساعدة مجموعات ممن ينتمون إلى هايلاندز ومورافيا وبروتستانت سالزبورج. وعقب إعلان الحرب بين بريطانيا وإسبانيا في عام ١٧٣٩م، حاول أوجليثورب التوسع عن طريق غزو فلوريدا التي كانت وقتها تخضع لسيادة إسبانيا. لكن محاولته باءت بالفشل، ومن ثم كانت جورجيا مهددة من قبل القوات الإسبانية في أربعينيات القرن الثامن عشر. لكن الإمبراطورية الإسبانية كانت تعاني وقتًا طويلًا تداعٍ لا يمكن تداركه، ولم تكن المستعمرات البريطانية عرضة لأي خطر حقيقي من الجنوب في أثناء مرحلة طفولة واشنطن أو شبابه، لكنها مع ذلك، كانت مسرحًا محتملًا للحرب، بحسب تقلبات الأحلاف الأوروبية والعداءات بينها.

وكان هناك تهديد أكثر خطورة يتطور غربًا من قبل الفرنسيين. فعلى مدار ١٥٠ عامًا، أحكم الفرنسيون قبضتهم على كندا السفلى، وأسسوا مستعمرة لويزيانا على مصب نهر المسيسيبي العظيم، وكان مركزها نيو أورليانز يصلح للاستخدام كميناء محيطي وكذلك ميناء نهري. وقد تقاتل البريطانيون والفرنسيون على مقاطعة نوفا سكوتيا Nova Scotia — أو أركاديا Arcadia كما أطلق عليها الفرنسيون. وفي عام ١٧٤٥م، حاصر شيرلي Shirley — حاكم ماساتشوستس — الميناء البحري الفرنسي «لويسفيل» Louisville الذي كان يسيطر على مقاطعة نوفا سكوتيا، وفرض سيطرته عليه في عملية عسكرية لعلها الأجرأ من نوعها التي تشنها مستعمرة إنجليزية. ومع هذا، اضطر ساكنو نيو إنجلاند إلى تسليمها بموجب معاهدة «إكس لاشابيل» Aix-la-Chapelle التي أُبرمت في عام ١٧٤٨م. وقد كانت تلك صدمة لواشنطن، الذي كان وقتها في بداية عمله في مسح الأراضي، أن يرى حكومة بريطانية بأوروبا تضحي بمصالح المستعمرات بذلك الاستهتار من أجل تحقيق مصالحها العالمية. وكانت تلك الواقعة أحد الأحداث التي دفعته إلى الإيمان بأنه لا شيء أقل من الاستقلال التام عن أوربا سيناسب تحقيق مصالح الأمريكيين الحقيقية.

وهكذا ظل خطر الفرنسيين يحدق بفيرجينيا من الشمال، لكن كان وجودهم في الغرب هو أكثر ما يثير قلقها، ومن ثم قلق واشنطن نفسه. لم

ينافس الفرنسيون الإنجليز قط في الاستعمار والزراعة على نطاق واسع: ففي حياة واشنطن كان عدد سكان المستعمرات البريطانية يفوق عدد سكان جميع المستوطنات الفرنسية الممتدة من كندا إلى خليج المكسيك بنسبة عشرة إلى واحد، وأخذت تلك النسبة في التزايد بثبات. إلا أن المستعمرين الناطقين باللغة الإنجليزية كانوا يتمركزون بكثافة في قطاع متاخم للمحيط الأطلنطي، ولم يبدءوا الاستقرار في المناطق الداخلية إلا في ذلك الوقت — وقت رحلة واشنطن الأولى لمسح الأراضي. وكان الفرنسيون يهدفون إلى استمرار هذا القيد إلى الأبد عن طريق الربط بين الأراضي الكندية الخاضعة لهم ووادي المسيسيبي، والاستحواذ على حوضه الضخم. وقد كان الفرنسيون مستكشفين بارعين، على امتداد منطقة هائلة وعملوا عن كثب مع مئات القبائل والاتحادات الهندية، وقد كانوا يؤمنون بدعوتهم إلى اعتناق المسيحية ونقل الحضارة الفرنسية إليهم. فتعلموا لغاتهم ورسموا الخرائط لأراضيهم بدقة مذهلة وتعرفوا على عاداتهم. وقد اعتاد أحد الحكام الفرنسيين، ويدعى فرونتيناك Frontenac، مقابلة الهنود وهو يرتدي زيهم ويرسم على وجهه بالطريقة الهندية، الأمر الذي اشمأز منه الإنجليز. كما شجع القساوسة الفرنسيون الزواج بين الفرنسيين والهنود، فأصبح هناك عدد ضخم من الأبناء مختلطي العرق في المقاطعات الفرنسية. ولم يتفوق الإنجليز على الفرنسيين فيما يتعلق بتكوين اتحادات مع الهنود إلا في جانب واحد فحسب، ألا وهو تزويدهم بكميات هائلة من السلع المصنعة الرخيصة. لكن هذا كان يعوضه معدل تزايد أعداد الإنجليز: فقد كانوا يبيدون الهنود بوساطة كثافة الاستيطان المطلقة، فقد ازداد مجموع عدد السكان في المستعمرات الإنجليزية في مرحلة شباب واشنطن، بين عامي ١٧٢٠م و١٧٥٠م، من ٤٤٥ ألف إلى مليون ومائتي ألف. وترجع تلك الزيادة في المقام الأول إلى التكاثر؛ فقد بلغ معدل الزيادة الناتج عن ارتفاع معدل المواليد وتوافر الطعام الصحي ٢٤ ضعف معدل الزيادة بإنجلترا. وقد لاحظ المسافرون لأول مرة كيف أن الأمريكيين أطول قامة — ونذكر هنا مرة أخرى أن جورج واشنطن كان يمثل ذلك النمط.

كان واشنطن نفسه متورطًا بقوة وعلى عدد من المستويات في صراع المصالح بين الفرنسيين والإنجليز. فقد دفع توسع فيرجينيا غربًا وصولًا إلى الجبال وما وراءها — المنطقة التي شملها مسح أملاك فيرفاكس الشاسعة وتقسيمها — المستوطنين إلى المنطقة التي كان مؤسسو الإمبراطورية الفرنسية يركزون عليها بالضبط؛ ألا وهي منطقة حوض نهر أوهايو الفسيحة — وهي المنطقة التي كانت تربط نهر سانت لورانس، حيث كانت أقدام الجيش الفرنسي مترسخة بقوة، عبر البحيرات العظمى، إلى حوض نهر المسيسيبي الرئيسي، حيث يصب نهر أوهايو. وقد كان نهر أوهايو يُعد مفتاح السيادة في أمريكا الشمالية لمدة قصيرة — تتزامن ومرحلة شباب واشنطن. وفي عام ١٧٤٧م، ساعد لورانس — أخو واشنطن غير الشقيق — في تأسيس شركة أوهايو Ohio Company بهدف تعزيز التجارة والاستيطان في غير أراضي فيرفاكس، وقد كانت رحلة واشنطن الأولى لمسح الأراضي جزءًا من استراتيجية الشركة. لكن فيرفاكس كان قد عين واشنطن أيضًا من أجل زيادة كثافة الاستيطان في المناطق الساحلية والمناطق الواقعة في سفوح الجبال، وفي عام ١٧٤٩م ساعد في التخطيط للمدينة الجديدة التي أطلق عليها الأسكندرية في شمال ماونت فيرنون. وعقب ذلك، شغله أول وظيفة رسمية وهو في السابعة عشرة من عمره في مسح أراضي مقاطعة كلبيبر Culpeper، وكان يعمل تحت إدارته واضعُ علامات وحاملُ محفة. وقد بقيت سجلاته المنسقة بعناية، التي تحمل توقيعه على كل مشروع: «جورج واشنطن، مساح أراضي مقاطعة كلبيبر». وقد كان جلّ عمله يقع على أطراف الحياة المتمدنة، وقد اعترض بشدة في خطاباته ودفاتر يومياته على المشقة التي كان عليه تحملها، نظرًا لكونه شخصًا منظمًا وصعب الإرضاء — مع أنه كان يتمتع بقدرة كبيرة على التحمل. فقد كان عليه العيش «وسط مجموعة من الهمجيين والأفظاظ ... لم أنم لأكثر من ثلاث أو أربع ليالٍ في فراش.» فقد اعتاد أن ينام على القش أو «فرو الدب» مع «رجل وزوجته وأطفاله، كمجموعة من الكلاب أو القطط.» وكان عزاؤه الوحيد الذي يجعله يتحمل ذلك العناء وتلك المهانة هو «المقابل المادي»؛ فقد

كان راتبه كبيرًا يصل إلى «دبلون أو حتى ست بيستولات في اليوم» — وهو ما يعادل اثنين وعشرين دولارًا إسبانيًّا، في زمن كان يمكن للمرء فيه شراء أكر من الأرض في وادي شيناندوه Shenandoah Valley مقابل دولار أو أقل. شرع واشنطن في شراء أراضٍ زراعية خصبة وهو في الثامنة عشرة من عمره، فاشترى ١٥٠٠ أكر في ١٧٥٠–١٧٥١م. وفي عام ١٧٥٠م، أصبح لورانس رئيس شركة أوهايو، التي كانت ترغب في بيع نصف مليون أكر من «الأرض الخصبة».

لكن لورانس وقتها كان قد أُصيب بالسل بالفعل، وعند وفاته في عام ١٧٥٢م، ترك لواشنطن ضيعة ماونت فيرنون، على أن تحصل ابنته (التي وافتها المنية في ١٧٥٤م) على دخل لمعيشتها وتتمتع زوجته بحق الانتفاع بها مدى الحياة. فحصل جورج على الضيعة وهو في سن الثانية والعشرين، وامتلكها كلية في عام ١٧٦٠م. وعند بلوغه منتصف العشرينات، كان يمتلك ما يقرب من عشرة آلاف أكر — لم تكن مزروعة بالكامل — وكان يُعتبر رجلًا ذا شأن وثروة. وقد خلف أخيه أيضًا كضابط في الميليشيا المحلية نظرًا لأن الأرض تحتاج إلى الحماية بقدر حاجتها إلى العمل بها. وفي السادس من نوفمبر/تشرين الثاني ١٧٥٢م، عينه حاكم فيرجينيا البارع العدواني روبرت دينويدي Robert Dinwiddie، «بعد أخذ مشورة مجلسه وموافقته»؛ رائدًا وضابطًا مساعدًا لقائد المنطقة الجنوبية، وقد أقسم يمين التنصيب قبل أن يبلغ الحادية والعشرين من عمره. لقد كان جورج صغير السن على أن يحمل هذه الرتبة، إلا أن طوله ومظهره الفخم وممتلكاته ضمنت له الطاعة. وسرعان ما أُسندت إليه مهمة حيوية؛ فقد وردت أخبار إلى دينويدي أن الفرنسيين ليسوا في وادي أوهايو فحسب، بل إنهم يشيدون حصونًا به. وقد طمأن حاكم الفرنسيين العظيم، ديوكسن Duquesne، الهنود قائلًا: «إن الفرنسيين يشيدون الحصون ويسمحون لكم بالصيد خلف أسوارها، أما الإنجليز فيبعدون جميع حيوانات الصيد لأنهم يزيلون الغابات في أثناء تقدمهم.» بل وقد تبنى الفرنسيون عادة الهنود في إطلاق كلمة «مناطق الصيد» على المناطق بدلًا من أقاليم ومقاطعات.

ومع ذلك، كان النشاط العسكري للفرنسيين نذير خطر للهنود، وقد ضمن ذلك — مدفوعًا بدبلوماسية حذرة وهدايا سخية — دعمهم للجانب الإنجليزي. فقدم دينويدي، الذي أزعجته أخبار تشييد الحصون الفرنسية، عريضة إلى جورج الثاني في لندن يطلب منه الإذن بالتحرك، وحصل عليه بالفعل، بالإضافة إلى التجهيزات الحربية، وأمر الرائد جورج واشنطن بقيادة حملة عسكرية ودبلوماسية واستخباراتية إلى المنطقة في أكتوبر/تشرين الأول ١٧٥٣م.

كانت تلك الحملة هي سبب نجاح وتفوق جورج واشنطن، من حيث ثقته بنفسه ورفع قدره في أعين معاصريه. فقد دارت أحداثها في الشتاء في ظل ظروف مناخية قاسية، وفي منطقة موحشة غير مستكشفة تقريبًا، وقد امتطى الخيل وسار على قدميه، وركب الزورق الخفيف، والأطواف المصنوعة في عُجالة، في الأمطار والثلج والأنهار الجليدية التي كاد يغرق في أحدها، وأصيب أحد رفاقه فيها بعاهة مزمنة إثر تعرضه للصقيع. وكانت المهمة تتضمن استمالة الهنود المتشككين (ومنهم «الملكة أليكويبا Queen Aliquippa ... فقُدمت لها هديتان: معطف من الفرو وزجاجة من الرُّم، واتضح أن الأخيرة هي أفضل الهديتين»)، وكذلك مناقشة نوايا الفرنسيين مع قائدهم. وجد واشنطن أنه استطاع التواصل مع الجيش الفرنسي بأسلوب مهذب، لكنه استنتج أنهم متمسكون بوادي أوهايو، وأنهم لن يتركوه إلا بالقوة. ففحص حصنهم الرئيسي ووضع خريطة تقريبية دقيقة ومفيدة للمنطقة بأسرها. وعند عودته في يناير/كانون الثاني من عام ١٧٥٤م، طلب منه دينويدي كتابة تقرير مفصل، قُدم إلى مجلس النواب، ثم طُبع وأُرسل إلى أوروبا حيث قرأه الكثيرون، الأمر الذي حفر اسم الرائد واشنطن ضابطًا مقدامًا وواسع الحيلة.

ونتيجة لذلك، تلقى واشنطن تعليمات بتجنيد مجموعة من الرجال لشن حملة لطرد الفرنسيين من وادي أوهايو، وهكذا ترقى إلى رتبة مقدم وهو في الثانية والعشرين من عمره وتولى قيادة قوة من المتطوعين من فيرجينيا والهنود لديها تعليمات ببناء حصن في منطقة ملتقى نهر يُطلق عليها

أوهايو فوركس Ohio Forks، بالقرب من مدينة بيتسبيرج حاليًّا. ووجد أن الفرنسيين قد استقروا في فوركس لبعض الوقت، وشيدوا حصنًا أطلقوا عليه اسم فورت ديوكسن Fort Duquesne، فشيد حصنًا منافسًا له في منطقة جريت ميدوز Great Meadows، وأطلق عليه اسم فورت نيسيسيتي Fort Necessity، وهو اسم يحمل في طياته إشارة ساخرة لصراعاته مع الحاكم دينويدي حول المؤن. ثم شن هجمة عنيفة على معسكر فرنسي مسلح يخضع لقيادة ملازم أول دي جومونفيل de Jumonville، وعندما هرع الفرنسيون إلى بنادق المسكيت المتكدسة لديهم، كتب واشنطن — الذي كان يحتفظ كعادته بدفتر للأحداث: «أمرت جنودي بإطلاق النار»، فدوى صوت الطلقات، كما هجم من معه من الهنود من قبيلة الإيروكويس بفئوس التمهوك. ثم أوقف واشنطن القتال وقَبِل استسلام البقية المتبقية من الفرنسيين، لكن حينها كان عشرة من الجنود الفرنسيين قد ماتوا بالفعل، بما في ذلك قائدهم. أثارت تلك الواقعة سخط الفرنسيين، وأطلقوا عليها «قضية جومونفيل» L'affaire Jumonville وتعاملوا معها على أنها عملية اغتيال. وعلى الأرجح كان واشنطن سيحاكم بتهمة القتل لو أنه وقع في أيدي الفرنسيين. وقد كان انتقام الفرنسيين فوريًّا وواسع النطاق، مما أدى مباشرة إلى نشوب «حرب السنوات السبع» في الفترة ما بين عامي ١٧٥٦–١٧٦٣م، التي أُطلق عليها الحرب العالمية الأولى التي نشبت في أمريكا الشمالية والجنوبية والوسطى، والبحر الكاريبي والمحيط الأطلنطي، والهند ودول الشرق وفي أوروبا. وقد اشتهر واشنطن أول ما اشتهر بأنه الشخص الذي تسبب في نشوب تلك الحرب، فكتب فولتير يقول: «لقد أذنت قذيفة مدفع أطلقت في أمريكا بنشوب الحرب التي أضرمت النيران في أوروبا»، لكن في حقيقة الأمر لم يكن هناك أية قذائف مدفعية. ونرى أن هوراس والبول يوضح الأمر بصورة أكثر دقة في كتابه «عهد جورج الثاني» History of the Reign of George II، حيث يقول: «أشعل وابل الرصاص الذي أطلقه أحد شباب فيرجينيا في منطقة نائية في أمريكا؛ النار في العالم.»

وصف واشنطن في خطاب إلى أخيه جاك إحساسه بأول عملية عسكرية يخوضها. وقد نشرت مجلة لندن مجازين London Magazine ذلك الخطاب، لكن محررًا يفتقر إلى الضمير قرر إضفاء المزيد من الإثارة عن طريق الإسهاب في رواية جورج للجزء الذي يتحدث فيه عن أنه لم يشعر بالرهبة من المعركة، فكتب: «لقد سمعت دوي الطلقات، وأؤكد لك أنني وجدت لدويها سحرًا.» لا يمكن أن تصدر هذه العبارة عن واشنطن الذي كان يأخذ المعارك بجدية، ومن الصعب أيضًا تخيل أن تصدر مثل هذه العبارة عن أي جندي حقيقي. وقد أثارت تلك المقالة حنق جورج الثاني عندما قرأها، وهو الذي كان فخورًا جدًّا بقواته المحاربة، وخصوصًا في معركة ميندين الدامية. فصرخ يقول: «يا إلهي، لم يكن ليرى لقات الرصاص ساحرة لو أنه اعتاد على سماعها.»

في واقع الأمر، سرعان ما حصل العقيد الشاب على كفايته من المعارك المتلاحمة الصعبة، وتذوق مرارة الهزيمة ليس مرة واحدة بل مرتين. فقد أُجبر على الاستسلام في الثالث من يوليو/تموز من عام ١٧٥٤م، عندما حاصرته قوات تفوقه عددًا في حصن فورت نيسيسيتي، لكنه نجح في إنقاذ أرواح جنوده وأسلحتهم بعد أن تعرض لـ«هزيمة نكراء»، كما وصفها بكلماته في دفتر يومياته. وقد تقدم إليه مجلس نواب فيرجينيا بالشكر عند عودته. أما هزيمته الثانية فقد مُني بها عندما كان بصحبة الجنرال برادوك Braddock تعيس الحظ الذي تولى قيادة فرقة من الجنود البريطانيين النظاميين ولديه أوامر بالاستيلاء على حصن ديوكسن. فكتب واشنطن إلى برادوك خطابًا قويًّا، ما إن تسلمه الأخير حتى ضم الشاب الفيرجيني اليافع المتمرس إلى فرقته برتبة عقيد، لكن برادوك تعجل في شن الحملة، فهُزِم ولاقى حتفه في أوهايو فوركس. ولم يكن واشنطن لاذعًا في انتقاده للجنرال برادوك كغيره، فقد قال إن تصرفه صُوِّر «بطريقة أسوأ مما يستحق». لكنه رأى أن بعض أفراد القوات البريطانية «قد تصرفوا بجبن لا يمكن تصوره»، أما رجال الميليشيا الفيرجينيون، فقد كانوا أكثر ثباتًا مقارنة بهم. وقد كتب في أحد الخطابات يقول: «نجوت دون أن أصاب بأي جراح لحسن الحظ،

مع أنني وجدت أربعة ثقوب رصاص في معطفي، وقُتل اثنان من الخيل التي امتطيتها.» كما أشار إلى «هزيمتنا النكراء، التي لا أطيق ذكرها لما تحمله من خزي.» ولم يكفه أن يتصرف بشجاعة في المعركة فحسب، بل تولى قيادة الجنود الناجين بهمة ودهاء عظيمين، وعاد بهم إلى الديار.

وفي ذلك الوقت، كانت سمعته الشخصية طيبة حتى إنه أصبح عقيدًا يتمتع بجميع صلاحياته، وعُين قائدًا عامًّا لقوات فيرجينيا وهو في الثالثة والعشرين من عمره. وقد علمته هذه التجارب الكثير من الدروس القيمة، ولا سيما في تقبل الهزيمة والتغلب على مرارتها، والاستعداد لخوض معركة أخرى، كما كانت تدريبًا حيويًّا للتجارب التي خاضها في حرب الثورة الأمريكية، فخسارة مناوشة عسكرية أو حتى معركة لا تعني خسارة الحرب. وبالفعل شعر في النهاية بالرضا لأنه قاد إحدى الفرق العسكرية الثلاث التي استولت على حصن فورت ديوكسن (أعيدت تسميته بفورت بيت Fort Pitt)، والتي دحرت القوات الفرنسية، وطردتها خارج أراضي فيرجينيا ووادي أوهايو. وبهذا النصر انتهت الحرب بالنسبة لفيرجينيا وجورج واشنطن، واستطاع أن يتقاعد بعزة وشرف. ولو أن المسئولين بالجيش البريطاني كانوا يتمتعون بالحصافة، لمنحوا العقيد المنتصر منصبًا دائمًا في الجيش البريطاني. فلو أنهم عرضوا عليه مثل ذلك المنصب، لكان سيقبله على الأرجح بكل حماسة، وكان من الممكن الاستعانة به بعد ذلك في الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية وتوسيع حدودها بدلًا من تمزيقها، لكنه لم يجد «مصلحة» في ذلك. وهكذا لم يلتحق واشنطن بالقوات البريطانية لأن التعيين أو الترقي بها لم يكن على أساس الكفاءة — وذلك على غرار نابليون الذي ظهر في الجيل التالي ولم يلتحق بالبحرية الملكية كضابط صف بحري للسبب نفسه. فلم يكن منه إلا أن توجه إلى الأعمال المدنية، التي شرع فيها بنشاط متجدد.

عندما عاد واشنطن من الحروب مع الفرنسيين، كان قد أصبح شخصًا بارزًا، ويتمتع بشخصية متميزة وفريدة. وبين أيدينا وصف مفصل له في ذلك الوقت:

«مستقيم القوام كالهنود، ويصل طوله إلى ستة أقدام وبوصتين، ويبلغ وزنه ١٧٥ رطلًا … جسده مفتول العضلات مما ينم عن قوة جبارة، وعظامه ومفاصله ضخمة، وكذلك يداه وقدماه؛ عريض المنكبين لكن صدره لم يكن بالضخم، ويتسم بخصر متناسق لكن ضخم الوركين، طويل الساقين والذراعين؛ ذو رأس حسنة السمت وليست بضخمة، وتستقر بأناقة على رقبة شامخة. وأنفه ضخم ومستقيم أكثر منه بارزًا؛ وعيناه الثاقبتان الرماديتان المائلتان إلى الزرقة متباعدتان ويعتليهما حاجبان كثيفان. ووجهه طويل وليس بعريض، وعظام وجنتيه مستديرة، وينتهي بذقن جميل ينم عن الحزم، وبشرته صافية لكنها شاحبة اللون ويظهر عليها أثر أشعة الشمس، وملامح وجهه لطيفة وودودة، لكنها في الوقت نفسه قوية. ويغطي رأسه شعر بني يصففه في ضفيرة. كما يتمتع بفم ضخم وعادة ما يكون مُطبقًا بحزم، إلا أنه في بعض الأوقات يكشف عن بعض الأسنان التالفة. وملامح وجهه متناسقة وهادئة بحيث يسيطر على جميع عضلات وجهه تمامًا، إلا أنها تصبح مرنة وتعبر عن مشاعر عميقة عندما تُحركه أي من تلك المشاعر. وعندما يتحدث إلى أحد ينظر إليه مباشرة بتأنٍ واحترام بحيث يجذب انتباهه. ودائمًا ما تجد سلوكه هادئًا ومهيبًا، كما تتسم جميع حركاته وإيماءاته باللباقة، ومشيته بالهيبة، كما أنه فارس بارع.»

وقد كانت كلمة «الهيبة» تُستخدم كثيرًا عند الحديث عنه، ولا سيما على لسان المهندس المعماري بنيامين لاتروب: «كانت مشيته وسلوكه وبنيته وملامحه تتسم بشيء من الهيبة والقوة الاستثنائيتين. ولم يتحدث قط بطلاقة ملحوظة، ولعل ذلك يرجع إلى الدقة المتناهية في لغته التي بدت متعمدة.»

وكان واشنطن يثير إعجاب الرجال والنساء على حد سواء. وبانتصاره على الفرنسيين — إذ إن الحرب في فيرجينيا انتهت فعلًا في عام ١٧٥٨م — كان مستعدًا لتكريس وقته للعمل بالزراعة، وتأدية مهامه بصفته عضوًا في مجلس

الكنيسة، وقاضيًا للصلح، وعضوًا في مجلس النواب. وقد أدى ذلك كله، بالإضافة إلى حاجته إلى الأموال والأملاك لتنمية الأراضي التي ورثها؛ إلى بحثه عن زواج عقلاني. وقد وجد ضالته بالفعل في مارثا داندريدج Martha Dandridge التي كانت أرملة ثرية؛ فقد تُوفي زوجها، دانيال بارك كاستيس Daniel Parke Custis، في عام ١٧٥٧م، تاركًا لها قطعة أرض تبلغ مساحتها ثمانية عشرة ألف أكر، وأملاكًا بقيمة ٤٠ ألف جنيه استرليني، وطفلين صغيرين. وكانت تكبر واشنطن سنًّا بتسعة أشهر وتصغره حجمًا (فيبلغ طولها أربعة أقدام وإحدى عشرة بوصة)، ولها شعر بني داكن، وعينان بنيتان تميلان إلى الخضرة، وأنف ضخم، ويدان وقدمان صغيرتان. كما كانت امرأة رقيقة وممتلئة القوام، وتحب الحديث، وكريمة وطيبة القلب، وكانت تقوم بكل المهام التي توكل إليها بكفاءة. ويبدو من دفاتر يوميات واشنطن أن تودده لها جاء متعمدًا أكثر منه محض صدفة، وأنه شرع في التودد والزواج من تلك المرأة النفيسة والجذابة التي أصبحت ممتلكاتها جزءًا من ممتلكاته. إلا أن الزواج لم يكن خاليًا تمامًا من الحب، فقد كان واشنطن يعاملها دائمًا من البداية إلى النهاية كسيدة عظيمة الشأن، وكان يذعن لها في الكثير من الشئون التي تهمه بشدة وكذلك في الآراء المترسخة، على سبيل المثال في قضية العبودية، حيث كانت آراؤها تقليدية وتتفق مع تقاليد المجتمع أكثر من آرائه، وكذلك آراؤها حول مسألة الضيافة، حيث إن ميولها المكلفة، بل والمسرفة كانت — بادئ ذي بدء — مثيرة للضيق على الأرجح، إلا أنه اعتادها. ولقد كرست حياتها تمامًا للعمل على راحته ومساعدته على النجاح في عمله، وسرعان ما بدأت تناديه «زوجي».

ويُمكن تقييم زواجهما بأنه كان مرضيًا وبناءً ومفيدًا، وإن لم يكن زواجًا رومانسيًّا. ولم ينتج عن ذلك الزواج أطفال، لكننا لا نملك دليلًا ماديًا على هذا. ومع ذلك، يفيد ما لدينا من معلومات أنه لم يشتك أحد الزوجين قط. وقد مزقت هي جميع خطاباته التي أرسلها إليها ما عدا خطابين، واحتفظ هو بعدد يبدو قليلًا بالنسبة لرجل يحرص على الاحتفاظ بالأوراق. ولا توجد إلا إشارة واحدة محتملة لحل ذلك اللغز؛ فمن بين مئات

الأشياء التي كان يطلب إحضارها من لندن، الكثير منها من أجل أطفالها: «كمان للأطفال ... وعربة تجرها ستة خيول في صندوق ... وإسطبل وستة خيول ... وستة كتيبات ... ووشاح مصنوع من نسيج الساتان ... وقماش العتابي لونه قرنفلي فاتح ... وأهداب الثوب المتجعدة المصنوعة من قيطان بروكسل ... وستة أرطال (؟) من مسحوق معطر» — كان هناك طلب غامض لشحنة من الذراح، وهو الاسم الطبي لخنفساء مجففة، تُعرف بالاسم الدارج «الذبابة الإسبانية»، وتُستخدم داخليًّا كدواء مُدِر للبول ومثير للأجهزة التناسلية. وكان يعتبر مثيرًا للشهوة الجنسية، ويمكن القول إنه كان معادلًا للفياجرا في القرن الثامن عشر. وقد أشار إليه إيدموند بورك Edmund Burke في كتابه «انعكاسات على الثورة الفرنسية» Reflexions on the French Revolution، حين قال: «ابتلاع كميات متكررة من الذراح من أجل حبنا للحرية.»

وسواء تناول واشنطن كميات متكررة من ذلك الدواء أم لا، فإنه لم ينجب أطفالًا. ومع ذلك، كانت ماونت فيرنون تعج بالكثير من الأطفال، بداية بابن زوجته جاكي، وابنتها باستي، اللذين كان واشنطن مغرمًا بهما. وبمرور الوقت، أصبح هناك خمسة أحفاد من أبناء زوجته وخمسة أبناء للأحفاد، بالإضافة إلى خمسة وعشرين من أبناء وبنات إخوته وأخواته. وقد كان واشنطن نفسه ينحدر من عائلة كبيرة اشتملت على أخوين متزوجين وأخت متزوجة واثنين من أبناء عمومته المقربين: أحدهما هو لوند واشنطن Lund Washington، الذي اعتنى بماونت فيرنون في أثناء غياب جورج واشنطن. علاوة على ذلك، كان لدى مارثا شقيقتان وشقيقان، بالإضافة إلى عدد من أبناء وبنات شقيقتيها وشقيقيها. ومن ثم، كان لدى جورج واشنطن في الواقع أسرة كبيرة، بقي أغلب أفرادها في منزله باستمرار، فجعلوه دائمًا تتردد في أركانه الألعاب الصاخبة ودوي ضحكات الأطفال. لقد كان جورج محبًّا للأطفال، ويكون في أفضل حالاته وهو بصحبتهم (وبصحبة السيدات)؛ فلم يعان الوحدة في حياته قط، بل على العكس. لقد كان ربًّا لعائلة كبيرة قبل أن يصبح الأب المؤسس لبلاده، وهو الدور الذي

أحبه وأداه على أكمل وجه. لكنه لم يشغل باله بأقاربه وحدهم، فقد كان يملك عبيدًا طوال مرحلة رشده، بلغ عددهم العشرات في بعض الأحيان، والمئات في أحيان أخرى. وقد تعرض لمشكلات جسيمة بسبب وجودهم، سواء أخلاقية أو عملية.

الفصل الثالث

مالك للعبيد ومزارع رائد وبناء

كانت فيرجينيا في القرن الثامن عشر، حيث عاش جورج واشنطن وعمل بالزراعة؛ عالمًا اعتاد فيه الناس درجات من العبودية واعتبروها أمرًا مسلمًا به، وكانت أعلى درجات العبودية هي العمل بعقود. ومنذ القدم، كان «العمال المهاجرون» أو «العمال الأحرار» يعملون في مزارع فيرجينيا، وهم المهاجرون البيض الذين أخضعوا أنفسهم للعمل لأجل محدد يتراوح عادة بين سنتين وسبع سنوات في مقابل تكلفة الرحلة من إنجلترا إلى أمريكا. وقد كانت تلك المجموعة تمثل ما يقرب من ٧٥٪ من إجمالي الهجرة حتى عام ١٧٧٥م. أما الطبقة التي تليها، فكانت تتضمن العاملين المجبرين، وكانت تتكون بصفة أساسية أيضًا من البيض الذين يعملون لتسديد دين عليهم، أو المحكوم عليهم أو «المنفيين» الذين حكمت عليهم المحاكم البريطانية بالنفي إلى إحدى المستعمرات — وكانت العقوبة لا تقل عن سبع سنوات، وكثيرًا ما تصل إلى أربع عشرة سنة أو تزيد — والذين استخدمتهم الحكومة للعمل لدى المزارعين. والفئة الثالثة والأدنى كانت تضم الرقيق السود والخلاسيين سواء، الذين كان الملوك أو الزعماء الأفارقة يبيعونهم إلى تجار العبيد البرتغاليين. وقد أدخلهم التجار الهولنديون إلى المستعمرات البريطانية في عام ١٦١٧م، ثم سرعان ما تزايد عددهم في فيرجينيا؛ مع أن الرق لم يصبح عرفًا مهمًّا في أمريكا حتى استعمار ساوث كارولينا من جهة جزر الهند الغربية. ومع ذلك، يجب أن نعي أن منطقة الجنوب الأدنى Deep South لم تبرز إلى الوجود إلا بعد اختراع إيلي ويتني Eli Whitney آلة حلج القطن في

١٧٩٣م، بحيث أصبح من الممكن إنتاج القطن بكميات هائلة باستخدام العبيد بغرض طرحه في الأسواق العالمية؛ فوقع الجنوب ككل بيأس في شباك «هذا العرف الغريب».

لم تكن العبودية في عصر واشنطن قد فرضت سيطرتها على الجنوب. فقد أظهر أول إحصاء أجري عام ١٧٩٠م أن هناك ٧٠٠ ألف من العبيد في المستعمرات الثلاث عشرة، وهو ما يعادل ٢٠٪ من إجمالي عدد السكان، وما يقرب من ٤٠٪ في الجنوب. لكن لم يحدث أن فاق عدد العبيد عدد البيض في أي مكان، وبدا أنها عادة تتراجع. وقد أصبحت محظورة في إنجلترا بموجب حكم مانسفيلد Mansfield Judgment الذي صدر في عام ١٧٧٢م، وتبعتها بعامين ولاية رود أيلاند، ثم فيرمون (١٧٧٧م) ومن بعدها بنسلفانيا (١٧٨٠م). وكان لا يزال هناك أمل في القضاء على العبودية عن طريق التحرير التدريجي للعبيد، وبطريقة سلمية، وهو ما آمن به واشنطن بالتأكيد.

ولطالما أبغض واشنطن الرق لأنه رآه عادة غير أخلاقية، وقد ازداد رفضه (ولن يكون من المبالغة أن نقول مقته) لتلك العادة بتقدمه في العمر وازدياد خبرته. وفي عام ١٧٦٧م، اشترى عبدًا يُدعى ويليام لي William Lee، وجعله خادمه الخاص، وعلمه ركوب الخيل، وسرعان ما أصبح ويليام فارسًا بارعًا مثل سيده، وكان الاثنان يركبان الخيل معًا في وقت السلم والحرب، ويذهبان للصيد والقتال كالإخوة — ودائمًا ما كان واشنطن يناديه بلفظة «رفيقي»، وهي كلمة منتقاة بعناية. وعندما أعتق واشنطن عبده ويليام في نهاية الأمر (وقد كان بإمكانه أن يفعل قبل ذلك بوقت طويل لولا خوفه من أن يفقده، نظرًا لأن فيرجينيا لم تكن لتحتضن السود الأحرار)، أطلق على ذلك العتق «عرفانًا بمرافقته لي وخدمته لي بإخلاص في أثناء حرب الثورة.» وقد خدم آلاف السود تحت إمرة واشنطن في الحرب، وأسروا إعجابه لما يتمتعون به من شجاعة وإخلاص شديدين، ولرفض أغلبيتهم انتهاز عروض البريطانيين بتحريرهم إذا ما تخلوا عن جيش الثورة. لكنه لم ينخدع في حقيقة العبيد السود، الذين كان يؤمن بأنهم عمال غير أكفاء

إلا إذا عملوا تحت رقابة دقيقة، غير أنه لم يستطع أن يتقبل أنه من الصواب — على حد تعبيره — «امتلاك البشر كالماشية».

كان واشنطن يملك الكثير من العبيد وهو مزارع شاب، وامتلك المزيد منهم عند زواجه، كما اشترى عبيدًا في محاولاته الحثيثة لأن يجعل الأراضي التي يملكها تدر المال فيتمكن من سداد ديونه. وعلى الأرجح مر عليه وقت كان يمتلك فيه ما يقرب من ثلاثمائة من العبيد، وكان يعيش في منزله وحوله قرابة العشرين عبدًا. وهنا يكمن السبب الثاني لكرهه للرق، فلم يكن هناك مفر من نشأة نوع من المودة التي كان يعي هو بألم عواقبها. كما كانت أسرة زوجته تشتمل على نسب مختلط، لكن ما كان يفوقه أهمية هو القصص التي رويت عن «بلاك جاك» كاستيس. وبالفعل كان من بين أهل بيته فتاة سوداء تُدعى آن داندريدج Ann Dandridge، وكانت تلعب مع أطفال زوجته جاكي وباتسي، لكنهما كانا يجهلان أنها خالتهما، فهي أخت مارثا غير الشقيقة، أنجبها والدها من امرأة تجمع بين الأصل الأسود والهندي والخلاسي. وقد احتفظت مارثا بأختها كخادمة داخل بيتها (مع موافقة زوجها على مضض) لأنها رأت — كما كان الحال مع ويليام لي — أنها إذا أعتقتها فستفقدها وتعرضها لحياة فقيرة وخطرة في الشمال. وقد كان هناك الكثير من تلك الحالات المؤلمة، حيث اكتشف واشنطن في عام ١٧٦٠م أن أحد العبيد لديه، الذي كان يعمل خادمًا في حفلات العشاء، ينتسب بصورة غير شرعية إلى إحدى الأسر المحلية البارزة. فكتب يقول: «لقد علمت أن [العقيد كاتسباي كوك Colonel Catesby Cooke] شعر بالغثيان في منزلي ورحل عند [رؤيته] لعبد زنجي كبير السن يشبهه.» وكان ذلك العبد أخا العقيد غير الشقيق.

كما واجه واشنطن مشكلة أخرى تمثلت في كيف يعامل عبيده؛ فقد كان فرار العبيد مشكلة متكررة لديه، كما هو الحال مع جميع أصحاب المزارع. وفي حالة تقاعس مالك العبيد عن إعادتهم، يثور جيرانه غضبًا؛ الأمر الذي جعل واشنطن يعرض مكافآت مقابل عودتهم، وقد بقيت إعلانات بعض تلك العروض. وقد أجريت الكثير من الأبحاث في السنوات الأخيرة حول

العبودية بالاعتماد على «الرواية الشفهية» وغيرها من الأساليب المشكوك في دقتها، فنجد على سبيل المثال أقاويل إن العبيد لدى واشنطن كانوا يرتدون ملابس بالية، وهذا يخالف ما هو مذكور في الإعلانات التي وضعها؛ حيث يصف بالتفصيل ما كان يرتديه عبيده الفارون. كما يصعب أيضًا تصديق محاولات إعادة بناء أماكن إقامتهم في ماونت فيرنون، وتصويرها بأنها غير مناسبة. ونعلم أن واشنطن كان يرفض مطاردة العبيد الفارين باستخدام الكلاب أو معاقبتهم بالجلد إلا عند الضرورة القصوى، وكان يسعى لأن يُعمِّد عبيده ويعلمهم. وعند وفاته، كان هناك زهاء المائة فقط من عبيده من أصل الثلاثمائة الموجودين في مزرعته يعملون فعلًا. وفي حين جرت العادة في مستعمرات أمريكا اللاتينية وأفريقيا نفسها أن يعمل العبيد حتى الموت، لم تجد تلك العادة طريقها إلى المستعمرات الثلاث عشرة (بل وكان ذلك مخالفًا للقانون بها). وهذا يفسر حقيقة أن العبيد في المستعمرات البريطانية كانوا يعيشون لمدة تعادل مرة ونصف عمر قرنائهم في أمريكا الجنوبية والوسطى؛ وضعف عمر العبيد في أفريقيا، حيث كانت الحياة «بغيضة ووحشية وقصيرة» بالنسبة للجميع، سواء العبيد أو الأحرار. وقد كان واشنطن يبذل ما في وسعه لجعل عبيده يؤدون حجم العمل اليومي المعقول — ويصف هو نفسه كيف استخدم ساعة توقيت لإجراء تقييم مبدئي لأداء النجارين أثناء صناعتهم لدعامات السياجات، وكان يحدد لهم الأهداف — فقد كان يرى أن المعاملة اللطيفة تثمر عن نتائج أفضل من المعاملة القاسية. وفي هذا الشأن، مثل الكثير من الشئون الأخرى، كان واشنطن يتسم بحس قوي من العدالة والنزاهة. وكان يبيع العبيد من حين إلى آخر لكن دون أن يتسبب بذلك في تشتيت الأسر. وتشير «دراسة» حديثة بغيضة إلى أن واشنطن كان يحصل على الأسنان الاصطناعية عن طريق خلعها من أفواه العبيد، وتركيبها في طاقم الأسنان الصناعية الخاص به، على يد طبيب أسنان فرنسي متجول زار ماونت فيرنون. لكن في حقيقة الأمر، كان جورج واشنطن يحصل على أسنانه الاصطناعية بصورة رئيسية من عاج فرس النهر، وأحيانًا من الخشب.

كما كان واشنطن يمقت العبودية لأنه كان يعتبرها غير فعالة من الناحية الاقتصادية، والعدو اللدود للزراعة الجيدة، إذ إنها قيدت أصحاب المزارع في فيرجينيا بنظام العبودية الخاص بهم، ألا وهو الاقتصار على زراعة التبغ وحده. وكان هذا النظام للكسالى من أصحاب المزارع المنغمسين في الملذات. وزراعة التبغ، ولا سيما في الأماكن الساحلية، تحتاج إلى الكثير من الأيدي العاملة، فتتطلب أن يقوم العبيد بعزق الأرض بصورة متواصلة. وكانت هناك سفينة تأتي من إنجلترا أربع مرات في العام تقريبًا، وترسو في مرفأ السفن بالمزرعة (الذي كان متوفرًا في جميع المزارع)، حيث يجري تحميلها بالتبغ. وتكون السفينة ذاتها محملة بالبضائع الإنجليزية، سواء من السلع الكمالية أو الأساسية، التي طلبها صاحب المزرعة في الرحلة السابقة. وكان الوكيل في لندن يبيع التبغ في السوق الأوروبية (فلم تكن هناك أسواق في فيرجينيا) ويستخدم العائدات في تسوية حساب البضائع التي زود صاحب المزرعة بها. ولم يكن لصاحب المزرعة أية سيطرة على العملية بأسرها؛ فكان دائمًا ما يقع أصحاب المزارع — إلا في بعض الحالات النادرة — في الدَّين لوكلائهم بلندن، وفي بعض الأحيان كان الدَّين يصل إلى حد مفجع (كما في حالة جيفرسون). وقد كان ذلك النظام سببًا في ظهور شعور معادٍ لبريطانيا في فيرجينيا، ولم ينجح ذلك النظام الزراعي، الذي كان واشنطن يمقته، إلا بسبب العبودية. وبالطبع، نجد أن من أهم نقاط قوة واشنطن أنه لم يستنكر النظام فحسب، بل وبذل كل ما في وسعه لاستخدام نظام زراعي حديث وفعال في مزارعه بدلًا من ذلك النظام.

وما إن خمدت الحرب الفرنسية والهندية في فيرجينيا في عام ١٧٦٠م، وشرع واشنطن في إدارة أراضيه بجد حتى أخذ مناهج الزراعة العلمية على محمل الجد. لقد كان واشنطن رجلًا نشيطًا يحب أن يكون دائمًا ممتطيًا جواده — وغالبًا ما كان كذلك من بزوغ الفجر حتى الغروب — وكان يتسم بعقل منظم ومنهجي، ويستمتع باكتساب المعرفة بالتجربة، ويشعر بالسعادة عندما يقوم بعمل معقد وصعب، والذي يكون إبداعيًّا بطبيعة الحال. ونرى كيف أصبح على قدر من البلاغة عندما كتب عن الزراعة قائلًا:

«أعتقد أن حياة المزارع دون غيرها حياة سعيدة، تتسم بالشرف ومليئة بالتسلية، بل ومربحة أيضًا إذا ما تبنى إدارة حكيمة. إن رؤية النباتات تنبثق من الأرض وتزدهر بفضل المهارة الفائقة للعامل وسخائه، تملأ العقل المتأمل بأفكار يسهل إدراكها عن التعبير عنها. وكلما علمت المزيد عن شئون الزراعة، زادت سعادتي بها. ولا أستطيع أن أجد هذا القدر من الرضا والسعادة في أي عمل آخر غير تلك الأعمال البريئة والنافعة.»

وأنهى حديثه قائلًا: إن «[إدخال] تحسينات على الأرض يدخل البهجة على العقل القويم.»

لكن كيف كان من الممكن بالضبط في حالته إدخال تلك «التحسينات»؟ (وهو مصطلح كان واشنطن يستحسنه واعتاد استخدامه: إنه لم يكن يرغب في تحقيق المدينة الفاضلة أو إحداث تغييرات جذرية؛ وإنما كان جل مراده هو إحداث تغيير نحو الأفضل.) كانت الخطوة الأولى تتمثل في التخلص من فكرة اقتصار الزراعة على محصول واحد. فلم يحقق واشنطن نجاحًا حقيقيًّا قط في زراعة التبغ، سواء عندما كان أعزب يعمل في أرضه التي ورثها، أو رجلًا متزوجًا يدير مزارع كاستيس. وقد أدرك أن التبغ كان السبب في نجاح وتطور فيرجينيا في القرن السابع عشر، لكنه كان يكره التدخين، وكان يرى أن زراعة التبغ الرديء (وهو النوع الوحيد الذي يمكن أن تخرجه الأراضي الساحلية المُستَنزَفة) ستؤدي إلى التكاسل وتراكم الديون. وبالفعل أدت زراعة واشنطن للتبغ إلى وقوعه في الديون، فقد كان مُدانًا قبل زواجه. ويُذكر أنه — في سعيه لإعادة توجيه مزارعه بأكملها إلى زراعة المحاصيل المتنوعة — لم يستهلك الاحتياطي النقدي وحساب ميراث كاستيس فحسب، بل وقع في المزيد من الديون، أو هكذا كان يشكو في خطاباته. لكن لا ينبغي الخلط بين إشارات واشنطن المتكررة إلى الدَّين في مراسلاته في جميع مراحل حياته وبين الإفلاس؛ فقد كانت الأغلبية العظمى من أصحاب الأراضي على جانبي المحيط الأطلنطي، ولا سيما أمريكا، وفي ظل نظام مصرفي بدائي أو غير موجود، وعجز متواصل في الأوراق والعملات

النقدية؛ كانت الأغلبية مدانة. لكن هذا ما نطلق عليه الآن مشكلة في السيولة أكثر من كونه افتقارًا إلى نفاذ البصيرة. ولم يحدث في حياة واشنطن قط أن تجاوزت ديونه أصول ممتلكاته، بل على العكس، كان شديد الثراء بما يمتلكه من أصول، خاصة بعد زواجه، وكان ما يقترضه لتوفير رأس مال عامل لم يكن سوى جزء ضئيل فقط من القيمة الصافية للأصول.

وقد كان هدف واشنطن من إعادة رسملة عمله الزراعي (إلى حد ما بالاعتماد على المال المقترض) هو الزراعة على نطاق واسع على غرار النموذج الإنجليزي الجديد، وذلك لأنه كان يعجب دائمًا وأبدًا بالأشياء الإنجليزية (مع وجود استثناءات بارزة). وقد كانت إنجلترا تشهد ثورة زراعية بفضل عمل أشخاص مجددين من أمثال تورنيب تاونسيند Turnip Townsend، وجيثرو تول Jethro Tull، وكوك Coke الذي ينتمي لمدينة نورفولك. فقد جعلت إصلاحاتهم من الممكن إطعام الذرية الناتجة عن الثورة الديموجرافية التي كانت تمر بطورها الأول؛ ومهدت الطريق للثورة الصناعية التي كانت بشائرها جلية، للانطلاق وتغيير العالم. وكان تعداد سكان المستعمرات الأمريكية في ازدياد أسرع حتى من تعداد سكان بريطانيا، وذلك نظرًا للارتفاع المذهل في معدل المواليد والهجرة. فكيف كان من الممكن إطعام كل تلك الأفواه المحتشدة؟

وقد رأى واشنطن أن الإجابة عن هذا السؤال تتمثل في مد الأجزاء الداخلية للبلاد إلى الأرض الزراعية الغنية التي فحصها بنفسه في الجانب الأقصى من الجبال، والعمل على زراعتها بالطرق الإنجليزية الحديثة. وفي ستينيات القرن الثامن عشر، كان واشنطن يمتلك ما يقرب من عشرين ألف أكر، ولم يكن لدى الكثير من الإيرلات والدوقات الإنجليز الأثرياء أكثر من هذا. فمن أين أتى الفارق بين دخلهم ودخله؟ كان ذلك لأن أفضل أساليب الزراعة الإنجليزية كانت عبارة عن مزيج حكيم من زراعة المحاصيل وأعشاب الرعي وتربية المواشي، التي توجه كلها للسوق. كما لاحظ أنه في حين كان التبغ يحتاج إلى التسويق في الخارج، كان هناك بالفعل سوق ضخمة ومتزايدة للمواد الغذائية نتيجة لنمو المدن الأمريكية، ولا سيما

نيويورك وفيلادلفيا وبالتيمور. ومن ثم كانت أولى خطواته هي التحول إلى زراعة القمح، وكان هذا يعني الاستثمار. وكان من بين الأسباب التي جعلت واشنطن يقع في الدَّين، خاصة بعد زواجه أكثر من ذي قبل، هو أنه كان يستثمر أمواله في الأرض والماشية (ويشمل ذلك العبيد الأشداء) عندما تحول من زراعة الأرض وحدها إلى الزراعة وتربية الماشية. وكانت زراعة القمح تحتاج إلى قوة عاملة أقل من التبغ — حيث كان يمكن لفلاح ماهر في حرث الأرض أن يقوم بعمل أربعين عبدًا يعزقون الأرض ببطء — لكنها كانت تحتاج إلى أعداد ضخمة من الحيوانات التي تستخدم في جر الأحمال الثقيلة، التي كانت تحتاج بدورها إلى كميات هائلة من التبن. لذا قام بزراعة علف الذرة والقمح، وزرع محاصيل جذرية، وجرب محاصيل العلف مثل البرسيم والبرسيم الحجازي (فصفصة). كما خصص حقولًا للماشية والخنازير التي أنتجت — بالإضافة إلى الخيول المستخدمة في حرث الأرض — الروث الذي استخدمه سمادًا للأرض. وزرع البازلاء والبطاطس، بالإضافة إلى نبات الكرمة، وأنشأ حدائق الفاكهة والخضروات؛ ليس فقط داخل ماونت فيرنون بل في جميع المزارع التي يملكها. وقد كان يحدد خطوات العمل اليومي والأسبوعي والموسمي بالتفصيل. فأصبح خبيرًا في أداء الكثير من المهام مثل: درس القمح، وتطعيم أشجار الفاكهة، وجز صوف الخرفان، وصيد سمك الرنجة والبحث عن سمك الحفش. وقد كتب يقول: «أبدأ يومي مع شعاع الشمس»، كي يتحقق من أن «العاملين» يأتون إلى العمل بعد ذلك بوقت قصير، وبعد أن يتأكد من أن «عجلة العمل قد دارت»، يتناول إفطاره في الساعة السابعة، ثم «أمتطي الحصان وأجول مزارعي، الأمر الذي يشغلني حتى موعد الاستعداد للعشاء.»

ومن الواضح أنه كان يستمتع بالحياة النمطية، لكن كان هناك وقت للهو أيضًا، فقد كان واشنطن يستمتع بشدة بصيد الثعالب — فقد كان «صيادًا مقدامًا»، خاصة بعد أن اشترى ويليام لي ليصطاد معه: «كان الرجلان يركضان بأقصى سرعة خلال الأشجار الكثيفة أو المتشابكة بأسلوب يقف أمامه صيادو العصر الحديث مشدوهين.» ولدينا بعض أسماء كلاب الصيد

المفضلة لديه، مثل جوبيتر وتارتار وتيبلر وترومان. وكان يصطاد ثلاث مرات في الأسبوع في موسم الصيد، وكان يسير «بضعة أميال» بعد تناول العشاء للحفاظ على صحته. كما كان يؤدي جميع الواجبات الاجتماعية والنيابية المنوطة بشخص في مثل منزلته، من عضو في مجلس الكنيسة إلى عضو في مجلس نواب فيرجينيا الذي كان قائمًا منذ ما يقرب من ١٥٠ عامًا عندما انضم إليه، والذي كان يؤدي أغلب الوظائف العادية التي تقوم بها الحكومة، والذي بدا جزءًا راسخًا من النظام الطبيعي للأشياء كما هو الحال مع البرلمان في ويستمنستر ذاتها. كما كان عليه هو ومارثا إقامة حفلات واستضافة ضيوف، فقد كان عليهم في المدة بين ١٧٦٨ و١٧٧٥م استضافة ما يزيد على ألفي شخص على العشاء، وكان أغلبهم (كما يذكر هو) «أشخاصًا ذوي شأن».

ومن أجل تأدية تلك الواجبات الاجتماعية بطريقة ملائمة ووافية، كان ينبغي تحويل ماونت فيرنون من بيت مزرعة إلى قصر مبني على الطراز المعماري للمهندس الإيطالي أندريا بالاديو Andrea Palladio، بحيث يشبه في مظهره الخارجي المنازل التي تظهر الآن في جميع أنحاء إنجلترا لكنه بالطبع ليس بفخامتها. ولا شك في أن ماونت فيرنون — المنزل والضيعة — والأسرة التي كانت تعيش فيه، كانوا أغلى ما في حياة جورج واشنطن. فلقد استحوذوا على تفكيره طوال الوقت، وجعلوا لطموحاته غاية يسعى إلى تحقيقها، وكانوا يحركون وطنيته وعمله في الخدمة العامة. وتعود ملكية عائلة واشنطن لماونت فيرنون (المنزل والمزرعة) إلى القرن السابع عشر، وقد آل إليه في عام ١٧٥٤م، وأصبح ملكية تامة له في عام ١٧٦٠م؛ بيد أنه شرع في إصلاح المنزل نفسه وتوسيعه وتجميله بداية من زواجه في ١٧٥٩م. ولم يستعن في ذلك بمهندس معماري قط، لكنه كان يستخدم الكتيبات والحرفيين، وكان يحب تعلم كيفية إصلاح المنازل، ويفضل أن يقوم بالعمل بنفسه.

وقد بدأ توسيعُ المزرعة لتصبح قصرًا في عام ١٧٥٩م، واستمر حتى موت واشنطن ثم بعده. وكما حدث مع مزرعة جيفرسون مونتي تشيلو

Monticello، لم تنته عملية توسيع المنزل حتى بدأ في الانهيار بعد مرور سنوات كثيرة على موت واشنطن العظيم. وقد جرى معظم العمل في المنزل في أثناء حرب الثورة ورئاسة واشنطن. ودائمًا ما كان هناك حرفيون وبناءون يعملون، وكان على مارثا تحمل الأمر. وكان موقع ماونت فيرنون، ولا يزال، رائعًا على الجرف العالي، يطل على النهر الصغير حيث ترسو السفن الضخمة. وكان واشنطن يهدف إلى تشييد المنزل بطريقة تسمح لمالكه بمشاهدة المنظر والاستمتاع به، لذا فقد وسع نطاق المنزل الأصلي من خلال إضافة أجزاء جانبية يعلوها طابق آخر، ثم (عندما أصبح رئيسًا) ربطها جميعًا برواق ضخم يمتد عبر المنزل الهائل.

كان البناء الأولي الموجود في الموقع في عام ١٦٩٨م تقريبًا، يتكون على الأرجح من جناحين فقط، أما منزل المزرعة الذي ورثه واشنطن، والذي بناه والده في عام ١٧٣٥م، فكان يحتوي على أربعة أجنحة. وقد أصبح القصر، الذي وسعه واشنطن، يضم أخيرًا ثمانية عشر جناحًا رئيسيًّا، بالإضافة إلى أربعة عشر مبنى إضافيًّا، بما في ذلك المطبخ الذي كان يقع خارج القصر. وكانت الأجنحة الجديدة تحتوي على ردهة كبيرة ومكتبة تعلوها غرفة النوم الرئيسية (المزودة بسرير عريض جدًّا أصر عليه واشنطن، يبلغ طوله ستة أقدام ونصف القدم)، وردهة لإقامة الولائم مزودة بنافذة على الطراز المعماري للمهندس الإيطالي أندريا بالاديو، ولم يتم تزويدها بالأثاث إلا بعد الحرب. كما توج السقف بقبة ثمانية الزوايا والأضلاع؛ وكان المنزل محاطًا بحدائق متناسقة أعدها واشنطن، وحديقة واسعة لزراعة الخضروات والفواكه محاطة بجدار، ومبنى لتدخين اللحوم وصوبات زراعية، وأخص بالذكر ملعب بولينج لممارسة الألعاب الفخمة بعد العشاء.

كان واشنطن يعير التفاصيل اهتمامًا كبيرًا، مستعينًا بكتيبات تتناول فن العمارة والزخرفة. وقد كان هو صاحب فكرة تشييد الرواق، كما ابتكر طبقة حماية خارجية للمبنى الضخم، تتكون من جدار جانبي من خشب الصنوبر الأصفر، وقوالب مخددة من الجرانيت لتشبه نظام البناء الماسوني، حيث يفصلون بين القوالب الضخمة خشنة الأسطح بفواصل عميقة، ومطلية

بعدد من طبقات الدهان الأبيض الممزوج بالرمال لتمنحها البنية الخشنة للحجر. وهكذا كانت جوانب المنزل تحمل اللون الأبيض المائل إلى الصفرة، على عكس السقف ذي الألواح الخشبية السميكة بنية اللون المائلة إلى الحمرة والقادمة من المستعمرات، والأبواب البنية والمصاريع الخضراء. وقد وصف المنزل أحد زائريه، وهو لاتروب، بأنه «يبدو كمنزل رجل إنجليزي من طبقة النبلاء يصل دخله السنوي إلى سبعمائة أو ثمانمائة.»

وكانت زخرفة المنزل من الداخل هي أيضًا من عمل واشنطن الذي كان يصر على تنفيذ أفضل التصميمات، ولا سيما في غرفة مكتبه التي كانت متصلة بسلم خاص بغرفة النوم الرئيسية التي تقع أعلاها، والتي كانت مجاورة لغرفة الطعام الخاصة. وكانت غرفة المكتب تحتوي على كرسي خشبي عريض الظهر وكرسي مكتب دوار صنعه توماس برلينج Thomas Burling من نيويورك في ١٧٩٠م؛ ثم انضمت إلى المجموعة مكتبة بها أدراج بالأسفل وخزانة لوضع الكتب بالأعلى، صنعها جون أيتكن John Aitken من فيلادلفيا في ١٧٩٧م. وذكر جورج واشنطن بارك كاستيس George Washington Parke Custis، الذي نشأ في ماونت فيرنون، أنه لم يكن يُسمح لأي شخص بدخول غرفة المكتب «إلا بإذن مباشر»؛ وأنها كانت غرفة «رائعة جدًّا» وتتمتع بخصوصية تامة وضرورية في منزل «مطلوب فيه حسن الضيافة الدائمة والراقية». وقد ظل واشنطن يصدر أوامر بشأن غرفة إقامة الولائم في منزله من معسكره في أثناء الحرب، وتمكن من الإشراف بنفسه على تزيين غرفة الطعام الخاصة في المدة بين ١٧٥٧–١٧٦٠م ثم ١٧٧٥م، حيث اختار شكل الزخارف من كتاب «المهندس البريطاني» British Architect للكاتب أبراهام سوان Abraham Swan. وقد استعان واشنطن باثنين من الحرفيين الماهرين لتنفيذ المخططات الواردة بالكتاب، وهما بيرنارد سيرز Bernard Sears، للقيام بنقش الخشب، وآخر فرنسي (مجهول الهوية) للقيام بأعمال اللياسة.

ونظرًا لإعجاب واشنطن الدائم بكل ما هو إنجليزي — عندما يكون مصنَّعًا بجودة عالية — فقد استوحى أفكارًا حول زخرفة منزله وإدارته

من قصر اللورد بوتيتورت Lord Botetourt، حاكم فيرجينيا، الذي يقع بمدينة ويليامزبيرج حيث كان كثيرًا ما يتناول عشاءه. وقد تعلم من الحاكم كيفية التعامل مع الخدم وكيفية إجراء المقابلات الرسمية. فكان لدى الحاكم خمسة وعشرون خادمًا يعملون داخل المنزل تحت إشراف كبير خدم إنجليزي متميز يطلق عليه ويليام مارشمان William Marshman، الذي كان يجعل غرفة تخزين الطعام وأدوات المائدة مجهزة على نحو فخم، ويحافظ عليها في صورة جميلة. وكذلك كان الحال في ماونت فيرنون بالطبع، بعد وقوع الكثير من التغييرات في القرن التاسع عشر؛ فقد تم إصلاح وإعادة ما يقرب من ٧٠٪ من أثاثه الأصلي والتجهيزات التي كانت موجودة به، ووضعت في مكانها؛ ذلك بالإضافة إلى الكثير من التحف الأخرى. فقد كان لدى مارثا واشنطن طاقم شاي مصنوع بطريقة خاصة، وكانت لديها عادة رائعة تتمثل في إهداء فنجان وطبق من ذلك الطاقم إلى ضيوفها المحببين، وقد أعاد معظم أحفاد أولئك الضيوف تلك الهدايا.

وبصورة عامة، تعكس مزرعة ماونت فيرنون بحالتها الحالية لزائريها صورة دقيقة «للجنة الصغيرة» التي خلقها واشنطن وزوجته. لقد كانت ماونت فيرنون إحدى أكثر الضياع روعة في أمريكا وأفضلها إدارة، نظرًا لمناظرها الرائعة وشكلها الخارجي الفخم، ووسائل الراحة التي خُطط لها بعناية، وشبكة المزارع والأراضي المنتشرة على نطاق واسع. ولولا استدعاء واشنطن للخدمة العامة مرتين — استمرت كل منهما مدة ثمانية أعوام — ولو أنه كرس حياته للعمل على تنمية أراضيه وزيادتها؛ لكان على الأرجح وصل إلى مكانة متفردة كأحد أكثر مزارعي أمريكا المستعمرة حكمة ونجاحًا. ورغم غيابه المتكرر وانشغاله بأمور أخرى، كانت ممتلكاته عند وفاته تُقدر بما يزيد على نصف مليون دولار، مما جعله أحد أغنى أغنياء البلاد. ومع ذلك، كان حبه لأمريكا يفوق حبه الشديد لماونت فيرنون، وجاء الوقت الذي شعر فيه أنه ملزم بتكريس حياته لخدمتها بجسده وروحه.

الفصل الرابع

قائد عام للقوات وجنرال منتصر

شارك واشنطن في الصراع مع بريطانيا منذ بدايته، نظرًا لمكانته كصاحب أراض بارز وعضو في مجلس نواب فيرجينيا يشارك في لجانه الرئيسية. لكنه لم يكن مناضلًا متشددًا أو محرضًا، ناهيك عن أن يكون متطرفًا. لقد كان يرى الحقائق بوضوح كافٍ، لكنه لم يكن يرغب في التوصل إلى النتيجة المنطقية، ألا وهي أن الانفصال عن بريطانيا كان حتميًّا. وفي شهر أكتوبر/تشرين الأول ١٧٧٤م، عندما كانت المستعمرات تشكل حكومات لتؤكد على حقوقها، كتب واشنطن (إلى النقيب روبرت ماكينزي Robert Mackenzie): «أعتقد أن تلك الحكومة، أو أية حكومة في القارة — منفصلة أو مجتمعة — لا ترغب في السعي للحصول على الاستقلال، وأعتقد أنه ليس من مصلحتها … وأرى أنه لا يوجد رجل حكيم في أي جزء من أجزاء أمريكا الشمالية يرغب في حدوث ذلك الأمر.»

ومع ذلك، كان لدى واشنطن دومًا اعتقاد قوي بأن على المستعمرات ممارسة قدر كبير من الحكم الذاتي، كما كان الحال دائمًا. لقد شاهد مجلس النواب يعمل لمدة قرن ونصف القرن بنجاح باهر، تحت سلطة واهية لحاكم ملكي يُعين (بناء على موافقة المجلس) كحاكم رسمي لفيرجينيا. وعلى غرار كثير من الأمريكيين، رأى واشنطن أن تأكيد الحكومة البريطانية على سلطتها عقب انتهاء حرب السنوات السبع لم يكن إلا اغتصابًا للحقوق التي كان يتمتع بها المستوطنون منذ البداية، وتبديلًا لتلك الحقوق وقمعًا لممارستها. وقد تجلت له تلك الحقيقة بوضوح في أكتوبر/تشرين الأول من

عام ١٧٦٣م عندما أعلن الملك جورج الثالث الإبقاء على جميع المناطق التي تمتد عبر جبال الأبلاش للهنود؛ إذ أوضح له مستشاروه العسكريون أن من أهم الدروس المستفادة من الحرب؛ الحاجة إلى الحفاظ على ولاء القبائل الهندية في أي صراع مستقبلي في أمريكا الشمالية. وكان ذلك يعني معاملة الهنود كرعايا بريطانيين؛ ليس بالضبط أن يكونوا على قدم المساواة مع المستوطنين البيض، ولكن المقصود هو تمتعهم بالحق نفسه في التطلع إلى بريطانيا لحماية مصالحهم الأساسية، التي تأتي في مقدمتها وحدة أراضي الصيد التابعة لهم. وعليه، جاء في نص إعلان الملك: «ومع شعورنا بالأسى، فإننا نحظر بشدة على جميع رعايانا الأحباء، بموجب هذا الإعلان، إجراء أية عمليات شراء أو استيطان عن طريق الاستيلاء على أي من الأراضي المذكورة آنفًا، دون إذن أو تصريح خاص منا بذلك.»

كان القرار الملكي بمثابة ضربة مباشرة ضد مصالح واشنطن الشخصية، وقد جاء مخالفًا لإعلان سابق صدر في ١٧٦٢م، عندما كانت عجلة الحرب لا تزال دائرة على أوجها، خصص مئات الآلاف من الأكرات المجانية من الأراضي الغربية للجنود الذين خاضوا الحرب. ولم يكتف واشنطن بالاستفادة من تلك الهبة فحسب، بل كان يتطلع إلى الحصول على قدر يزيد على حصته الضئيلة. وفي خطاب أرسله إلى أخيه تشارلز، يظهر واشنطن لهفته للحصول على حصص لعدد آخر من الجنود. ويميط ذلك الخطاب اللثام عن جانب مخادع في شخصية واشنطن، إلا أنه بصورة عامة لم يشكل جزءًا رئيسيًّا فيها، بيد أن ذلك الجانب كان يظهر عندما يتعلق الأمر بالأراضي. فكتب يقول: «نظرًا لموقعك المتميز الذي يسمح لك برؤية الكثير من الضباط في أوقات مختلفة، أرجو أن تتمكن من معرفة القيمة التي يريدونها مقابل أراضيهم (مازحًا في بادئ الأمر أكثر منك جادًّا) ... وإن استطعت شراء أي من الأراضي، أرجو أن تكتبها باسمك؛ وذلك لأسباب سأطلعك عليها عندما نلتقي. وخلال إجرائك جميع صفقاتك، سواء مع الضباط أو في هذا الأمر الآخر، لا تخبر أحدًا بأن لي علاقة بالموضوع ... ولا تطلع أحدًا على أي جزء من هذا الخطاب.»

ولا شك أنه لولا «حرب الثورة»، لأصبح واشنطن من كبار ملاك الأراضي التي تمتد عبر جبال الأبلاش. فالقليل كانوا يعرفون معلومات أكثر منه عنها أو أشد إيمانًا منه بمستقبلها المشرق، ولم يكن اهتمام واشنطن بتلك المسألة نابعًا من المصلحة الشخصية فقط، بل المصلحة الوطنية أيضًا. فقد كان من الذين آمنوا مبكرًا بما أُطلق عليه فيما بعد «المصير التوسعي»، ومن ثم كان من الضروري أن يصبح المحيط الهادئ هو الحد الغربي لفيرجينيا. وكانت المتعة التي يستخدم بها كلمة «قاري» تعني أنه رأى المستعمرات تطوق جميع أجزاء أمريكا الشمالية في النهاية. وكان قرار الملك، في حالة تطبيقه، يجعل تحقيق ذلك مستحيلًا. علاوة على ذلك، بدا كما لو أن القرار الملكي يمنح الهنود مساواة قانونية مع المستوطنين. وعلى عكس الكثير من المستوطنين، لم يكن واشنطن يكره الهنود، وكان دائمًا ما يعاملهم باحترام، لكنه مع ذلك كان يعتبر الهنود القبليين همجيين، وهي كلمة كثيرًا ما استخدمها عند الإشارة إليهم، إلا أنه لم يذكر صراحة أنه لو أنهم لم يتخلصوا من النظام القبلي ويختلطوا بالمستوطنين (كما فعل الكثيرون)، فلن يكون لهم مستقبل في أمريكا؛ لكن ذلك ما كان يدور في خلده بالطبع. فلم يكن بإمكان المستعمرات الممتدة أن تعيش بجانب أراضي الصيد الهندية المقدسة؛ ومن ثم كان قرار الملك جورج إنكارًا لمستقبل أمريكا.

وكان إغلاق الحدود الغربية المفتوحة من وجهة نظر واشنطن هو السبب الرئيس لمقاومة بريطانيا، لكنه كان يعكس أيضًا صراع الحقوق القائم بين المجالس الاستعمارية والبرلمان بويستمنستر. وقد أصبح ذلك الصراع مركز اهتمام عند إصدار جورج الثالث «القانون التفسيري»، الذي أقره برلمان ويستمنستر بعد ثلاث سنوات: «لطالما كانت المستعمرات والمزارع المذكورة في أمريكا، ولا تزال، ويجب أن تكون، تابعة للإمبراطورية وبرلمان بريطانيا العظمى وخاضعة لهما.»

وكان واشنطن واثقًا أنه في حالة تطبيق ذلك القانون بالكامل، فلن يكون أمام أمريكا بديل إلا المقاومة العسكرية، مع أنه كان يؤمن في عام ١٧٧٤م أن بريطانيا سوف تصل إلى تسوية تحتفظ بموجبها بالحقوق

الصورية، وتترك للمستعمرات عملية اتخاذ القرارات الفعلية. وبالطبع كانت الضرائب جزءًا من صراع الحقوق ذلك، وإن لم تكن في نظر واشنطن الجزء الأهم منه. ورغم إعجاب واشنطن بحاكمي فيرجينيا اللذين كان يعرفهما: دينويدي وبوتيتورت، فقد كان لا يؤمن بحكومة لندن وبقدرتها على اتخاذ القرارات الصائبة الخاصة بأمريكا. وكان أبناء وطنه يكرهون أن يُفرض عليهم أي نوع من الضرائب؛ وإنها لحقيقة من أهم الحقائق في تاريخ أمريكا أن الضرائب بها ظلت منخفضة حتى النصف الثاني من القرن العشرين. لكن واشنطن لم يكن يشاركهم معارضتهم للضرائب بصورة كاملة؛ فلقد كان يدرك باعتباره جنديًّا أن من الضروري وجود جيش من أجل الحفاظ على أمن البلاد، ويجب دفع رواتب الجنود، وهذا يعني بدوره فرض الضرائب. وعندما أصبح رئيسًا كان يصر على أن القوات النظامية عامل أساسي في الدولة؛ وقد أظهر قمعُه العنيف لواقعة «تمرد الويسكي» إصرارَه على أن يخضع الجميع للضرائب. لكنه رأى في ستينيات القرن الثامن عشر أن الأمريكيين أنفسهم يجب أن يكونوا هم من يقرر الضرائب التي يدفعونها، من أجل تحقيق الفعالية والعدالة.

ومن ثم رأى أن قانون الدمغة Stamp Act الصادر في عام ١٧٦٥م، الذي بدأ عملية فصل أمريكا عن بريطانيا — كما كتب لوكلائه بلندن — ليس فقط «غير دستوري» و«تعديًا سافرًا على حرياتنا»؛ بل لا يمكن تطبيقه أيضًا: «ستُغلق محاكمنا، ومن المستحيل من الناحية الأخلاقية أن نذعن للقانون الصادر عن البرلمان في ظل ظروفنا الحالية.» فلم يكن لدى أغلب الناس المال الكافي لدفع تلك الدمغات، وكان سيحمل في طياته آثارًا مفجعة على التجارة مع بريطانيا، وكان التجار البريطانيون سيعانون أشد معاناة. وقد رأى واشنطن، عند إلغاء القانون، أن الرسوم التي فرضها تشارلز تاونسيند Charles Townsend في ١٧٦٧م تفتقر إلى الحكمة أكثر من القانون الذي حلت محله. وقد أوضح أنها كانت ستتسبب في ارتفاع أسعار السلع البريطانية المستوردة أكثر مما كانت عليه بالفعل، لتصل إلى معدلات شديدة الارتفاع؛ وذلك لأن بريطانيا لم تكن قد اتبعت نظام التجارة الحرة

بعد (وهو الأمر الذي لم يحدث حتى ثمانينيات القرن الثامن عشر)، فقد كانت لا تزال الدولة التجارية القديمة التي تمنع مستعمراتها من الإتجار بحرية في الأسواق العالمية. وقد تنبأ واشنطن بأن الرسوم ستؤدي إلى انقلاب الأمريكيين ضد التجارة مع بريطانيا، وزيادة تهريب البضائع، وإقناع الأمريكيين بصناعة السلع بأنفسهم، مما سيؤدي إلى تعجيل عملية كانت تبدأ على كل حال. وحدث ما توقعه واشنطن: فكانت المقاطعة هي رد فعل المستعمرات على الضرائب الجديدة، وشارك فيها هو مدفوعًا بضميره، وكذلك الانتعاشة في التجارة المحلية، أيدها هو بشدة. لقد كان واشنطن يريد من بادئ الأمر إلى نهايته أن تتمتع أمريكا باقتصاد متكامل ومتعدد الأغراض، مع وجود أسواقها الخاصة ونظامها المالي الخاص. ولم يشارك بعض الآباء المؤسسين رأيهم الذي يقول إنه ينبغي أن يسيطر على أمريكا نبلاء قرويون، على غرار النمط الروماني؛ يديرون ضياعهم مع إدارتهم للبلاد.

لقد تحير واشنطن في أمره بسبب جهل الحكومة الأم المستفحل وعدم كفاءتها بداية من عام ١٧٦٣م، وتحولت الحيرة في النهاية إلى غضب واشمئزاز. ونظرًا لنشأته على الإعجاب بكل ما هو بريطاني، وإعجابه الشديد بالبلد الصغير الذي انتصر في الحرب العالمية الأولى في التاريخ، لم يتمكن واشنطن من استيعاب ما كان يحدث في لندن. فقد كانت السرعة التي تخلص بها جورج الثالث من الرجال الذين انتصروا في «حرب السنوات السبع» فائقة، لم يفقها إلا غباء وقصر نظر الأشخاص الذين عينهم في مناصبهم. وكان أقربهم إليه إيرل جزيرة بوت Earl of Bute، الذي كان أول رئيس للوزراء لديه. أما تشارلز تاونسيند أو «تشارلي الشامبانيا» — كما كان يُطلق عليه — فكان مصابًا بالصرع، وغريب الأطوار، ولديه نزعات سريعة التقلب، فقد وضع الضرائب المشئومة وفرضها من غير تفكير أو إعداد — وكان على الأرجح على أعتاب الموت. وكان اللورد جورج جيرمين Lord George Germaine، سكرتير المستعمرات الأمريكية — حيث لم يظهر منصب حقيقي يعنى بأمر المستعمرات حتى جيل لاحق، الأمر الذي شكل

جزءًا من المشكلة — ضابطًا سيئ السمعة، وأُدين بالجبن في معركة ميندين (وقد أمر رجل الدولة عظيم الشأن بيت Pitt، الذي كان حينها معارضًا قويًّا، بقراءة الحكم أمام جميع وحدات الجيش)، وتقرر أنه «غير صالح لخدمة جلالة الملك بأية صفة كانت». لكنه كان شخصًا متملقًا، فأعاده الملك الشاب حديث العهد، الذي كان محبًّا للخانعين له، إلى منصبه حيث أظهر نزعة عدائية مُضللة ضد أمريكا على عكس ما أظهر من جبن فيما مضى. وقد أصر إيرل مقاطعة ساندويتش The Earl of Sandwich، الذي كان مسئولًا عن الأسطول البحري؛ على نشر الجزء الأكبر من الأسطول في المياه الأوروبية معتقدًا أن أمريكا لا تمثل أية أهمية، كما منع عنه الموارد المالية — وهو ما كان فيه يدًا واحدة مع اللورد نورث Lord North، أحد الحمقى التابعين للملك جورج الثالث، الذي كان شغوفًا بالاقتصاد وكارهًا لقراءة أوراقه — لكن كانت قدرته على رؤية الأمور تضمحل تدريجيًّا.

لقد آمن واشنطن في تلك المرحلة، كغيره من الأمريكيين، أن الوزراء بلندن هم السبب في سوء إدارة أمريكا، ولا ذنب يقع على عاتق الملك. لكنه أدرك الحقيقة شيئًا فشيئًا: إن جذور المشكلة تكمن في الملك جورج الثالث وغطرسته الملكية وجهله وغبائه، وقبل كل شيء عناده. فلم يتعلم الملك جورج القراءة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره، وظلت كتابته كالأطفال حتى وهو في سن العشرين. ولم يكن هناك سبيل لتقويم عجزه عن استيعاب أية وجهة نظر مغايرة لوجهة نظره — فقد كان يتشاجر مع جميع أبنائه، وعزل بناته البائسات عن العالم كالراهبات. وفي النهاية أُصيب بمس من الجنون لا سبيل إلى علاجه، وهناك علامات تشير إلى سلوكيات غير سوية خلال حياته. لكن ما لم يفهمه واشنطن هو لماذا لم يحاول قط أي من رجال السلطة في بريطانيا التعرف على الشعب الأمريكي وتاريخه وآرائه. فلم يدرك أي منهم أن المستعمرات تتمتع بحكومات نيابية منذ نشأتها، التي تعود في بعض الحالات إلى ستة أجيال سابقة. وقد كان من يعرفون الدولتين على جانبي المحيط الأطلنطي، مثل بنيامين فرانكلين، على يقين تام من إمكانية التوصل إلى تسوية إذا ما تقابل الطرفان وتفاوضا. وقد كان

من عادة واشنطن، باعتباره مالكًا لعدد من الأراضي المتناثرة؛ أن يفحص أراضيه بنفسه ويسرع إلى أي مكان تقع به مشكلة؛ ولذلك لم يستوعب السبب وراء عدم حضور أي وزير من لندن في زيارة رسمية إلى أمريكا. وبالطبع، كان ينبغي للملك جورج الثالث الحضور بنفسه، فربما زيارة ملكية كانت ستحدث فارقًا كبيرًا، لكنه، وعلى عكس أسلافه، لم يذهب إلى أي مكان؛ فلم يزر ولو حتى لمرة واحدة مقاطعته القارية هانوفر التي كان أميرًا ناخبًا عليها. إنه لم يفارق إنجلترا قط، وقد أمضى حياته بالكامل تقريبًا في مدينة ويندسور، يذهب إلى لندن لحضور اللقاءات الرسمية فقط. فقد كان يعتقد أن في إمكانه معالجة جميع الأمور عن طريق المحادثات الخاصة مع الوزراء، وكتابة الخطابات. ومن الغريب، أنه لو حدث وتقابل جورج الثالث وجورج واشنطن لأُعجب كل منهما بالآخر، وذلك لشغفهما المشترك بالزراعة (بالإضافة إلى البيسبول)، فلم يطلق على الملك اسم «جورج المزارع» من فراغ.

لكن الأحداث جمعت بين الرجلين في إحدى أطول الحروب في تاريخ دولتيهما. ومع ما كان يتمتع به واشنطن في ريعان شبابه من مستقبل عسكري لامع، فإنه لم يكن يتمتع بثقل سياسي كبير في فيرجينيا؛ فقد باءت محاولتاه الأُولَيان للانضمام لمجلس النواب بفيرجينيا بالفشل في عامي ١٧٥٥م و١٧٥٧م. وقد نجح في عام ١٧٥٨م في الانضمام للمجلس ممثلًا لمقاطعة فريدريك، وبداية من عام ١٧٦٥م نجح في تمثيل مقاطعته الأم فيرفاكس. لكن نفوذه كرجل أفعال يتخذ خطوات عملية زاد عندما ساءت الأوضاع في ستينيات القرن الثامن عشر. وعندما أحل الحاكم بوتيتورت المجلس في ١٧٦٩م لتأكيد أعضائه على حق فيرجينيا في فرض الضرائب الخاصة بها؛ كان واشنطن ضمن الذين شاركوا في جلسة غير شرعية للمجلس في حانة. كما أُنتخب ضمن اللجنة التي قررت بالتصويت مقاطعة البضائع البريطانية — «جمعية لا للاستيراد» — التي حققت الهدف المنشود منها. فأُلغيت الرسوم التي فرضها تاونسيند (ما عدا تلك المفروضة على الشاي) في ١٧٧٠م، وحُلت الجمعية في السنة التالية، وتمكن واشنطن من

الاهتمام بشئونه الخاصة. فاضطلع بدور قيادي في تأمين قطعة الأرض التي حصل عليها هبة في أوهايو مقابل خدمته في الحرب، واشترى مساحات كبيرة من غيره من الضباط؛ بحيث حصل في النهاية على ما يزيد على أربعة وعشرين ألف أكر في عام ١٧٧٣م.

كانت الأراضي الزراعية هي السبب في تعمق واشنطن في أرجاء فيرجينيا الغربية (التي كان يصل إليها في الغالب باستخدام زورق الكنو)، وقد وضع خطة لتحسين الملاحة أعلى نهر بوتوماك، وكان مشتركًا بالفعل في وضع خطة لتجفيف منطقة جريت ديسمال سوامب Great Dismal Swamp التي تقع على حدود فيرجينيا مع كارولينا الشمالية. كما افتتح طاحونة دقيق تجارية في ماونت فيرنون، ومشروعات تتعلق بمجالي النسيج والصيد. ولكن أشعل إغلاق ميناء بوسطن في عام ١٧٧٤م — كإجراء انتقامي ضد ما عُرف باسم «حفلة شاي بوسطن» — فتيل الأزمة مرة أخرى على نحو أكثر حدة. فجرى حل مجلس فيرجينيا مجددًا، ثم عاد واجتمع كما حدث من قبل بصورة غير قانونية. وقد نادى واشنطن ورفاقه بإنشاء «مجلس عام» يضم «المستعمرات الأمريكية البريطانية المتعددة»، وترأس اجتماعًا تبنى «قرارات فيرفاكس» مناديًا بالحكم الذاتي ومقاطعة قوية. وقد كان واشنطن واحدًا من النواب السبعة من فيرجينيا الذين شاركوا في «الكونجرس القاري الأول» الذي أكد على «حق المشرِّعين بالمستعمرات الحصري في سن التشريعات … في جميع الحالات المتعلقة بالضرائب والسياسة الداخلية.»

وقد تعززت مشاركة واشنطن في السياسة الوطنية في مارس/آذار من عام ١٧٧٥م عندما مثل فيرجينيا مرة أخرى في «الكونجرس القاري الثاني». وفي تلك الأثناء، كانت الحرب قد اندلعت في ماساتشوسيتس بالقتال بين الميليشيا المحلية والقوات البريطانية في مدينتي كونكورد وليكسينجتون في التاسع عشر من أبريل/نيسان. وقد حضر واشنطن الكونجرس الأول في فيرجينيا، وفي الكونجرس الثاني تم استقباله في فيلادلفيا، مرتديًا زيه الرسمي، بصفته قائدًا لخمس سرايا من ميليشيات فيرجينيا. فغادر ماونت فيرنون في الرابع من مايو/أيار في سترته العسكرية بلونيها الأزرق والبني

المائل للصفرة، ولم يعد إلى منزله إلا في زيارة قصيرة وهو في طريقه إلى يورك تاون في عام ١٧٨١م.

إن الظروف التي اختير واشنطن في ظلها قائدًا عامًّا لقوات الثورة في أثناء انعقاد الكونجرس الثاني تستحق تحليلًا موجزًا؛ فلقد كان خيارًا ملائمًا وجليًّا، بيد أنه لم يكن المرشح الأوحد. وظهوره بالزي العسكري في كل من الكونجرس الأول والثاني — الذي شعر هو نفسه بكونه رمزًا للجدية التي يتعامل بها مع الأحداث — وإيمانه بأنه لا مناص من تجربة الخيار العسكري؛ يمكن أن يمثل أيضًا رغبته في شغل المنصب؛ فلقد كان واشنطن المتألق في ثيابه العسكرية أكثر الحضور بروزًا، لا سيما أن الوضع يتحول من الاحتجاج الشفهي إلى العملي. وقد جاء اختياره بالإجماع، لكن حينذاك، كان واشنطن كعادته مزيجًا غامضًا من الطموح والخجل، والثقة وعدم الثقة في النفس.

وعندما أصبحت الدعوة عامة في السادس عشر من يونيو/حزيران ١٧٧٥م، أخبر واشنطن الكونجرس بأنه يشعر «بأسى شديد ينبع من شعوري بأن قدراتي وخبرتي العسكرية قد لا تكون أهلًا لتلك الثقة الكبيرة الغالية.» كما أضاف: «وأرجو أن يتذكر جميع النبلاء في هذه الغرفة إعلاني اليوم وبكل إخلاص أنني لا أرى نفسي كفئًا للقيادة التي شرفتموني بها.» وبعد مرور يومين، أكد في خطاب رقيق ومؤثر أرسله إلى مارثا يخبرها فيه أن عليه التقدم إلى بوسطن على الفور لتولي قيادة الجيش: «بدلًا من السعي للحصول على ذلك المنصب، بذلت كل ما في وسعي لتجنبه.» لكنه أقر بأن «القدر هو الذي أرسلني لتلك المهمة» — وأسرع للانتقال إلى المسائل العملية، مثل تحديثه لوصيته، وإرساله قماشًا لها لتصنع منه رداءً مع ذكر ثمنه، وهو أمر معتاد في مراسلات واشنطن.

تولى واشنطن القيادة في مدينة كامبريدج بماساتشوسيتس في الثالث من يوليو/تموز. وقد بلغ عدد الجيش القاري أربعة عشر ألفًا، وكان يتشكل في أغلبه من أفراد مجندين لمدد قصيرة من أجل وحدات الميليشيا. وقد تقلص هذا العدد إلى عشرة آلاف في نهاية عام ١٧٧٥م نظرًا لانتهاء

مدد التجنيد. وطوال سنوات الحرب التي دامت ثمانية أعوام، لم يتولَّ واشنطن قيادة ما يزيد على ستين ألف مجند ككل (وذلك نتيجة لوجود معدل سنوي للفرار من الخدمة يصل إلى عشرين بالمائة)، ولم يتجاوز عدد قواته المقاتلة في أرض المعركة عشرة آلاف قط، وعادة كان العدد أقل من ذلك بكثير. وكان واشنطن يعاني نقصًا في كل شيء: فبداية لم يكن لديه بنادق تقريبًا، وكان لديه قليل من ذخيرة المسدسات الصغيرة، والقليل من الملابس العسكرية (وقد استغرق ثلاث سنوات كي يشكل قوات لها زي عسكري موحد، وخمس سنوات لإقناع ضباطه بارتداء شارات رتب موحدة). كما كان هناك عجز في الأغطية والخيام (فقد مر عام قبل أن يحصل على غطاء لكل فرد من رجاله). وكان تحت تصرفه اليسير من المال، وأحيانًا كان لا يجد أية نقود، وكان واشنطن نفسه يخدم في الجيش دون مقابل، ويحصل فقط على مصروفاته التي كان يحسبها بعناية. لكن الجنود كانوا في حاجة إلى رواتبهم، وكانوا نادرًا ما يحصلون عليها، ووقعت الكثير من حالات التمرد التي كان جميعها يحدث نتيجة تأخر مستحقاتهم. ولم يكن هناك انضباط حقيقي بين الصفوف، ووقف الضباط (الذين انتخب الجنود غالبيتهم) عاجزين عن فرض النظام. وفي نهاية الأمر، استطاع واشنطن الحصول على بعض السلطات القانونية الاستثنائية من الكونجرس، بموجب المحاكم العسكرية. ومع أنه رجل لطيف وعطوف، فإنه لم يتردد في محاكمة أشد المذنبين وإعدامهم رميًا بالرصاص.

كما استعان واشنطن بخدمات الجندي الألماني المحنك، فريدريش فيلهيلم فون شتيوبن Friedrich Wilhelm von Steuben، الذي وضع نظام تدريب موحد — وهو ضروري للحفاظ على تشكيلة الصفوف عند الاشتباك في أرض المعركة — وقام بتدريب الرقباء المسئولين عن التدريب، وفرض الانضباط الروتيني. علاوة على ذلك، وجد واشنطن في هنري نوكس Henry Knox — الذي كان يعمل بائعًا للكتب في بوسطن، والذي كان يضاهيه طولًا وإن كان أثقل منه وزنًا — رجل مدفعية بارعًا. فقد جمّع في شتاء

١٧٧٥–١٧٧٦م عددًا من المدافع في حصن تيكونديروجا Ticonderoga، ونقلهم عبر ممرات خلال جبال بيركشاير وعبر نهر هدسون. وبالفعل تمكن من إجبار البريطانيين على الجلاء عن بوسطن في عام ١٧٧٦م بنشره لتلك المدافع أعلى مرتفعات دورتشستر، كما كان لهذه المدافع دور حاسم في يورك تاون. وأخيرًا، رأى في أليكسندر هاميلتون Alexander Hamilton — وهو محام من جزر الهند الغربية وقائد ميداني قوي متقد الذكاء — رئيس أركان ممتاز، فعينه في هذا المنصب من ١٧٧٧م إلى ١٧٨١م (وكان منصبه الاسمي سكرتير)، وترأس عددًا من الضباط المعاونين الذين كان نصفهم من فيرجينيا. وكان واشنطن يطلق على أولئك الشباب، الذين يحمل كل منهم رتبة عقيد، عائلته العسكرية — وهي النظير العسكري لعائلته بماونت فيرنون. وكان واشنطن يعاملهم بحب وعطف، وكانوا يبجلونه (باستثناء واحد أو اثنين منهم) ويخدمونه بإخلاص شديد. وهكذا، حصل واشنطن ولأول مرة في التاريخ، بفضل صفاته الشخصية — وليس من المبالغة أن نقول بفضل جاذبية شخصيته — على طاقم ضباط مساعدين من الدرجة الأولى، الذين كانوا يفهمون عقليته وأساليبه ويمكنهم تنفيذ أفكاره وخططه بدقة متناهية. ولم يكن أي من القادة البريطانيين يتمتع بتلك الميزة، بل ولم يتمتع بها القائدان البارزان اللذان ظهرا في الجيل التالي نابليون وويلنجتون Wellington. لكن من الناحية العسكرية المحضة، كان هذا هو كل ما يملكه واشنطن، وما عدا ذلك كان أعداء واشنطن يفوقونه في أعداد الجنود والأسلحة والتمويل. (فكان أحد نظرائه، السير هنري كلينتون Sir Henry Clinton، يعيش على مبالغ مصروفاته ويودع كامل مرتبه الضخم في المصرف، وعاد إلى إنجلترا مهزومًا ولكن ثريًّا.)

لن يتذكر التاريخ واشنطن كأحد القائدة الميدانيين العظماء، فلم يكن بارعًا في التكتيك الحربي، ونادرًا ما وثق بقدرته (أو بالأحرى بقدرة رجاله) على المناورة ما إن تبدأ المعركة، مع أنه كان دائم النشاط، ويجول بفرسه ويصول بسيفه على كل من الأعداء والجبناء من جنوده على حد سواء. وقد مُني بالهزيمة في ثلاث معارك من أصل المعارك العشر التي خاضها. لكن

من ناحية أخرى، كان واشنطن عبقريًّا في وضع الاستراتيجيات يفهم تمامًا أي لون من الحروب يخوض وكيف يفوز بها.

لقد انطلق واشنطن بإيمان راسخ بأن القضية الأمريكية لم تكن عادلة من الناحية الأخلاقية فحسب، بل مشروعة من الناحية القانونية أيضًا. إن المستعمرات — التي أصبحت ولايات الآن — كانت تتمتع بالحكم الذاتي منذ إنشائها ووضع أهلها السلطة في يد المجالس التشريعية. فكان تأكيد بريطانيا على نفوذها، كما جاء في «القانون التفسيري»، تخطيًا لسلطتها وعدوانًا منها؛ ومن ثَمَّ فإن مقاومتها ليست حقًّا مشروعًا فحسب، وإنما واجب أخلاقي أيضًا. ولم يحِد واشنطن قط عن ذلك الاعتقاد الذي كان المصدر الأساسي لطاقته وإصراره على الانتصار، ولا سيما في الشدائد. وهكذا أصبح الكونجرس حكومة شرعية، تستوجب الطاعة والاحترام الداخلي مثلها مثل الحكومة البريطانية ذاتها؛ وأصبح الجيش هو قوتها العسكرية المشكلة بصورة شرعية، وأصبح واشنطن — بصفته القائد العام لذلك الجيش — يتمتع بجميع الصلاحيات التي يتمتع بها أي مشير يقود جيش قوة أوروبية عظمى. ولذلك لم يصر، في مراسلاته مع القادة البريطانيين حول قضية معاملة الأسرى؛ على مبدأ المعاملة بالمثل فحسب — فلا يُعامل الأسرى الأمريكيون لدى بريطانيا كمتمردين بل كأسرى حرب، كما كان هو يحترم الحقوق العسكرية لأسراه — بل أيضًا على أن يخاطبوه في رسائلهم بلقب «الجنرال واشنطن»، وإلا امتنع عن تسلم تلك الرسائل، وقد نجح بالفعل في فرض رغبته.

لقد كان واشنطن عازمًا على الحفاظ على الحكومة النيابية والجيش بوصفه أداة لتحقيق أهدافها، وألا يتدهور الوضع إلى حرب العصابات مهما تكلف الأمر. كما كان مقتنعًا — وهو على حق — أنه إذا استطاع الحفاظ على وجود الحكومة الأمريكية والجيش لمدة طويلة بما يكفي، فستعيي الحرب البريطانيين وسيعترفون بوجودهما، وستكون هذه بداية للمفاوضات التي ستنتهي بلا شك بالحصول على الاستقلال. ومن ثم، خاض واشنطن حربًا في البقاء واستنزاف العدو متجنبًا المعارك المخطط لها مسبقًا إلا عندما

تكون الظروف في مصلحته بدرجة كبيرة، ولم يكترث لتعرضه للهزائم ما دام الجيش قائمًا والحكومة هي الحاكم الفعلي للبلاد.

وقد كانت الاستراتيجية البريطانية النقيض المنطقي لذلك، فقد كان البريطانيون يرون أن الكونجرس غير شرعي، وأن الجيش ليس إلا مجموعة من المتمردين، وأن الأمريكيين — مهما كانوا منظمين — لا يتعدون قط كونهم «رعايا» لا يتمتعون بحقوق جماعية تزيد على حقوق الهنود. وبناء على ذلك، كان الملك وحكومته يصرون باستمرار على أنه لا يمكن عقد مفاوضات حتى تتوقف المقاومة. ولم تملك قيادات الجيش والبحرية المعينين — الجنرال جيتس General Gates، ثم الجنرال هوو General Howe وأخوه الفريق البحري هوو Admiral Howe، والجنرال كلينتون، ثم الجنرال كورنواليس General Cornwallis — سلطة الحيد عن ذلك الموقف قط ولو قيد أنملة. وإذا وضعنا في الاعتبار عناد الملك جورج الثالث وإيمانه المطلق بصحة موقفه، وموارد بريطانيا العظمى الاقتصادية وغير الاقتصادية الضخمة؛ فإن هذا كان يعني حربًا طويلة. ومع أن القوات البريطانية في عام ١٧٧٥م كانت قليلة العدد، فقد وصلت إلى منطقة نيويورك بحلول صيف ١٧٧٦م أضخم حملة عسكرية في تاريخ بريطانيا — لعلها أضخم حملة تنطلق من أوروبا حتى عصر نابليون — تتكون من اثنين وثلاثين ألفًا من الجنود كاملي العدة والعتاد. وكانت عملية نشر الجنود تُعزز باستمرار، وتدعمها أضخم الأساطيل البحرية في ذلك النصف من العالم وأكثرها كفاءة. ولم يستخدم جورج الثالث قواته وحدها، لكنه أحضر أيضًا جنودًا مرتزقة من ألمانيا، وأرسل ما يزيد على ثلاثين ألفًا منهم (الغالبية العظمى منهم ينتمون إلى ولاية هيسن) عبر المحيط الأطلنطي. ونظرًا لهيمنتهم الكاملة على البحر حتى عام ١٧٨١م، كان البريطانيون يستطيعون إنزال قواتهم والمدفعية إلى اليابسة وإعادتهم إلى السفن ثم إنزالهم مرة أخرى في أي مكان على طول السواحل الأمريكية لامتلاكهم قواعد بحرية آمنة في نوفا سكوتيا في الشمال، وفي جزر الهند الغربية وبيرمودا في الجنوب، وهكذا كان بمقدورهم فرض استراتيجيتهم.

ومن ناحية أخرى، لم يكن لدى البريطانيين أي التزام عاطفي بالحرب إلا إصرار الملك جورج الثالث على خوضها. ففي وقت اندلاع الأزمة في ماساتشوسيتس في ١٧٧٣–١٧٧٤م، ساد إنجلترا بعض الحماسة الشعبية نحو «معاقبة» «المتمردين»، لكنها سرعان ما تلاشت وبعد ذلك أصبح الشعب البريطاني غير مبالٍ بالحرب. ولم تؤثر الحرب حقًّا على الثقافة والأدب أو حتى الصحف حينذاك. لقد كان البريطانيون يشهدون ثورة، ليس فقط في مجالي الزراعة والصناعة، لكن في مجال النقل أيضًا حيث كان إنشاء الشبكة القومية للقنوات والطرق الرئيسية. وكانت معظم طبقات المجتمع تجني مبالغ غير مسبوقة من النقود، وكانت التجارة البريطانية تتوسع في جميع أنحاء العالم. وعلى الصعيد الداخلي، كانت القرى تتسع إلى مدن، وسكانها يغيرون مهنهم، وينضمون إلى اقتصاد الأجور؛ لقد كانت هناك أمور أخرى تشغل الشعب. ولم يفتقر الملك قط إلى أغلبية برلمانية خاضعة — من النواب الذين وصلوا إلى مناصبهم لأنهم من الحاشية المفضلة للملك وأولئك الذين يحكمون قبضتهم على دوائرهم الانتخابية — للتصويت مؤيدين الحرب، التي جعل التوسع الاقتصادي تمويلها سهلًا بصورة نسبية. لكن القليل فقط كان لديهم فكرة عما يدور على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي، وأقل منهم كانوا يأبهون.

لربما اختلف الوضع لو أن الملك جورج الثالث ووزراءه نجحوا في تنظيم حزب فعال من المناصرين لهم في أمريكا. لقد وجد واشنطن أن ثلث الشعب — خاصة في ماساتشوسيتس وفيرجينيا — يؤيدون الحرب، وثلث آخر كان من أنصار بريطانيا (أما البقية فكانوا محايدين). لكن جورج الثالث لم يستطع قط، على حد تعبيره، معاملة الموالين له على أنهم حلفاؤه — فهم أيضًا كانوا مجرد «رعايا». ومن ثَمَّ لم تكن هناك أية محاولة لتنظيمهم، ولم يظهر من بينهم قادة. ولم يشكل الموالون للملك جورج الثالث تهديدًا عسكريًّا على واشنطن، أو تهديدًا سياسيًّا على الكونجرس؛ فكل القادة من أهل الرأي كانوا يقفون إلى جانب الثورة. أما الوضع في بريطانيا، فكان يسير في الاتجاه المعاكس؛ فجميع السياسيين البارزين

وأهل الرأي والوزراء وذوي النفوذ من أعضاء الكنيسة كانوا يرون أن الملك مخطئ، وأرادوا التفاوض لتسوية الموقف. وكان واشنطن على دراية بتلك الآراء، وعلم أن أي تأييد للحرب في بريطانيا سيتلاشى إذا ما تمكن من التحمل لمدة كافية. كما رأى — وكان محقًّا — أنه كلما طالت الحرب دون أن تُحسم، زاد احتمال أن ينضم أعداء بريطانيا من الدول الأوروبية التي سلبتها مستعمراتها — فرنسا وأسبانيا وهولندا — إلى أمريكا في الحرب. وبالفعل تمكن بنيامين فرانكلين منذ السنوات الأولى للحرب من أن يشرع في تنظيم الحصول على إمدادات أسلحة من فرنسا. لقد كان أحد العناصر الرئيسية في استراتيجية واشنطن ومصدر ثقته هو أن عامل الوقت يقف إلى جانبه.

ومع ذلك، كانت الأعباء الملقاة على عاتق واشنطن تفوق طاقته وسعة حيلته. فقد اعتقد البريطانيون في بادئ الأمر أنهم حتمًا سيحرزون نصرًا مبكرًا لأن جنود الميليشيات والجنود من المدنيين لا يستطيعون الصمود أمام القوات النظامية. وقد خاب ظنهم، لكن واشنطن ذاته كان يخالجه الظن نفسه بقدر ما. فقد ذكر في أحد خطاباته إلى أحد أعضاء الكونجرس الذين كان يراسلهم بصورة رئيسية، ألا وهو جون هانكوك John Hancock، في الرابع والعشرين من سبتمبر/أيلول ١٧٧٦م:

> «إن الاعتماد على الميليشيا هو يقينًا مثل الاستناد إلى عصا مكسورة؛ فإن الرجال الذين يُجَرون من الحياة العائلية الرقيقة ويكونون غير معتادين على دوي الأسلحة؛ لا تكون لديهم أدنى فكرة عن أي من المهارات العسكرية؛ وهذا — إذ يتبعه انعدام ثقتهم في أنفسهم عند لقاء جيش منظم تلقَّى تدريبًا منظمًا وعُين بصورة نظامية ويتفوق عليهم في الخبرة والعتاد — يُصيبهم بالجبن ويجعلهم على استعداد للفرار حتى من رؤية طيفهم.»

وقد اكتشف صحة ذلك الاعتقاد مرارًا وتكرارًا، وكان يرى أنه لا بد أن يكون الجزء الأكبر من جيشه في اشتباكات بصورة منتظمة. لكن الصعوبة

كانت تكمن في أنه بموجب اللائحة التأسيسية الصادرة في ١٧٧٥–١٧٧٦م، وهي سلف الدستور الأمريكي، لا يمكن للكونجرس فرض الضرائب من أجل الإنفاق على جيش وطني؛ ولم يكن في استطاعته إلا التفاوض على جباية ضرائب من ولايات منفصلة. لقد كرس واشنطن الشق الأكبر من وقته، وثلثا مراسلاته الهائلة في أثناء فترة الحرب؛ لطلب الأموال والإمدادات من رؤسائه السياسيين — وقد كان يتمتع في سعيه المتواصل هذا، ولحسن الحظ، بنفس إصرار الملك جورج الثالث على الاستمرار في الحرب. ومع ذلك، وكما جاء في خطابه إلى ناثانيال جرين Nathaniel Greene بعد انتهاء الحرب في ١٧٨٣م: «لن يصدق أحد أن مثل تلك القوة التي سخرتها بريطانيا العظمى لمدة ثمانية أعوام في هذا البلد، يمكن أن يحول دونها ودون تحقيق خطتها في إخضاع هذه البلاد؛ قوة أقل بكثير في العدد وتتكون من رجال كثيرًا ما كانوا يعانون نقص الطعام، ودائمًا ما يرتدون الملابس الرثة، ولا يتقاضون راتبًا، وعانوا كل أنواع المحن التي يمكن للطبيعة البشرية تحملها.»

لقد كان السبب الفعلي لبذل واشنطن كل ما في وسعه لتعزيز الدعم المدني للحرب ومنع أي تعامل مع العدو، هو تقديره لبطولة قواته وتعاطفه مع معاناتهم. ومن بين الخطابات التي لم تنل منها أيدي الأيام خطاب مهم أرسله جورج واشنطن إلى لوند واشنطن Lund Washington، الذي كان يدير ماونت فيرنون، يعنفه فيه على إمداده لسفينة من البحرية البريطانية رست أسفل المنزل بالطعام مقابل وعد بعدم المساس بالمزرعة والعبيد العاملين بها. فكتب يقول: «إن ما يزعجني حقًّا هو أن تصعد على متن سفينة الأعداء وتقدم لهم الأطعمة. وما كان ألمي ليكون بهذه الحدة لو أنني علمت أنهم أحرقوا منزلي ودمروا المزرعة نتيجة لعدم إذعانك لطلبهم.»

ذلك الخطاب، الذي لا شك في صدقه، يعكس مدى إيمان واشنطن الراسخ؛ فقد كان يشعر أن التضحية بمنزله القريب من قلبه هي أقل ما يمكنه تقديمه في ظل عجزه عن الانتصار في معركة حاسمة بالموارد المحدودة المتاحة لديه. فكتب يقول: «ينبغي لنا في جميع الأحوال أن نتجنب القيام بعمل عسكري شامل، وأن نتجنب استدراجنا إلى ضرورة المخاطرة بأي

شيء ... أدرك أن الجيش المنسحب يُحاط بكثير من الصعاب، وأن رفض القائد خوض اشتباك يلحق به الخزي ... لكن عندما يكون مصير أمريكا على المحك ... علينا إرجاء الحرب إن أمكن.»

وهكذا كانت خطوته الأولى، بصفته قائدًا عامًّا للقوات، تحرير بوسطن حيث كانت معقل المقاومة الرئيسي. وقد تمكن من تحقيق مراده في السابع عشر من مارس/آذار ١٧٧٦م بفضل مدافع نوكس، وقرار بريطانيا بإخلاء بوسطن وتركيز قواتها في نيويورك. ثم توجه بجيشه قليل العدد إلى نيويورك وأمر بقراءة إعلان الاستقلال، الذي كان الكونجرس قد أصدره لتوه، على جميع الوحدات في التاسع من يوليو/تموز. لكن لم يكن تحت إمرة واشنطن إلا تسعة عشر ألف جندي «قاري» — كما كان يُطلق على جنوده النظاميين — عديمي الخبرة بالإضافة إلى رجال الميليشيا، في مواجهة اثنين وثلاثين ألف جندي بريطاني. فبدأ يُهزم المرة بعد الأخرى ويُجبر على التراجع؛ فخسر معركة لونج آيلاند في السابع والعشرين من أغسطس/آب، منسحبًا من مرتفعات بروكلين بعد ثلاثة أيام، ثم خسر معركة وايت بلينز في الثامن والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول، ومعركة فورت واشنطن في السادس عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، ووقع ألفان وثمانمائة من رجاله في الأسر. وكان الانسحاب على فترات متقطعة لكنه بدا لا نهاية له، وقد قام بأعمال خارقة حتى يتمكن من الإبقاء على جيشه متماسكًا. لكنه مع ذلك نجح أيضًا في تحقيق انتصارات، ففي الخامس والعشرين من ديسمبر/كانون الأول، وفي واحدة من أكثر اللحظات المثيرة في الحرب، قاد واشنطن بنفسه ألفين وأربعمائة جندي في جنح الليل وعبر بهم نهر ديلاوير الذي كان تكسوه طبقة من الجليد العائم، وفي اليوم التالي استطاع إنزال الهزيمة بالحامية من ولاية هيسن في مدينة ترينتون، وأسر تسعمائة من الجنود. وبعد مرور أسبوع، قاد بنفسه هجومًا على برينستون نجح فيه في تفريق جموع القوات البريطانية. وقد كان لهذين الانتصارين الثانويين أثر المعجزات على معنويات الأمريكيين، في الجيش والكونجرس.

من الصعب وصف حرب الثورة نظرًا لعدم وجود نمط واضح لها. فقد كان للبريطانيين المبادرة طوال الحرب تقريبًا بفضل جيشهم الأضخم وسلاح البحرية الساحق، لكن كانت استراتيجيتهم تفتقر للاتساق بسبب التغيير المتكرر للقيادة. وقد أُرسل الجنرال بورجوين Burgoyne General من كندا إلى الجنوب في ١٧٧٧م بهدف الاستيلاء على وادي هدسون وعزل نيو إنجلاند — التي كانوا يعتبرونها مركز الثورة — عن بقية المستعمرات. وكان من المفترض أن يتجه الجنرال هوو صوب وادي هدسون لملاقاة بورجوين، بيد أنه اتجه جنوبًا إلى فيلادلفيا وبنسلفانيا؛ فألحق الهزيمة بواشنطن في معركة برانديواين كريك في شهر سبتمبر/أيلول، وفي جيرمان تاون في أكتوبر/تشرين الأول. لكن في تلك الأثناء، أُجبر بورجوين على الاستسلام في معركة ساراتوجا أمام قوة يقودها جنرال هوراشيو جيتس Horatio Gates. أدى ذلك بدوره إلي وقوع أزمة في المعسكر الأمريكي، فلقد تآمر بعض الضباط، بعد أن قارنوا هزائم واشنطن بانتصارات جيتس، لتعيين جيتس قائدًا عامًّا للجيش. وقد تمكن واشنطن، بترفعه عن مثل هذه الأمور، من إحباط تلك المؤامرة، التي سُميت «كونواي كابال» تيمنًا باسم الجنرال توماس كونواي Thomas Conway وهو متطوع أيرلندي ساخط؛ وذلك لعلمه بأن جميع الجنود يؤازرونه.

كان شتاء ١٧٧٧–١٧٧٨م في ذلك الوقت، يُعتبر أسوأ المراحل التي شهدها الأمريكيون. وفي الواقع، كانت استراتيجية الاستنزاف التي كان واشنطن يتبعها قد بدأت تؤتي ثمارها، وفي السادس من فبراير/شباط ١٧٧٨م، اعترفت فرنسا باستقلال أمريكا ووقعت معاهدة تحالف تعهدت فيها كلتا الدولتين بتقديم المساعدة العسكرية والبحرية إذا ما أدت تلك المعاهدة لنشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا، وهو الأمر الذي سرعان ما تحقق. وبالفعل، وصل أسطول فرنسي يتكون من أربعة آلاف جندي إلى المياه الإقليمية الأمريكية في الثامن من يوليو/تموز. وكان واشنطن يرى أن أي شيء يمنع جورج الثالث من تعزيز جيشه ويمنع أسطوله البحري من فرض سيطرته على المياه الإقليمية الأمريكية يأتي على رأس قائمة أولوياته

الواضحة. لكنه كان — في ذلك الوقت وفيما بعد — كارهًا لفكرة إشراك قوى أوروبية أجنبية. فقد نشأ على كره الفرنسيين، وهو الشعور الذي زاد بمحاربته لهم. ولم يكن واشنطن يرحب بالمتطوعين أو المرتزقة الفرنسيين؛ نظرًا لأن جنوده وجدوا أنهم، على غرار الأيرلنديين، لا يمكن الاعتماد عليهم ويميلون إلى السياسة ويسيرون وفق خططهم الخاصة. وذلك ما عدا ماركيز دي لافاييت، الذي كان شابًّا متحمسًا، والذي أصبح عضوًا غير رسمي في «عائلة» جورج واشنطن. وكان واشنطن معارضًا لأية استراتيجية أمريكية تتضمن غزو كندا والإطاحة بالحكم البريطاني بها، وذلك لخشيته من غزو فرنسا لكندا مرة أخرى، الذي كان سيتبعه بلا شك مخططات فرنسية تمتد إلى داخل وادي المسيسيبي. لقد كانت تجربته المبكرة في العمل مع الفرنسيين في ١٧٧٨م — في هجوم فرنسي-أمريكي مزدوج فاشل على مدينة نيوبورت بمستعمرة رود آيلاند في شهر أغسطس/آب — مثبطة للهمة، وزادت من عدم ثقته بهم. لقد كان واشنطن يؤمن في أعماق قلبه بإمكانية التعاون مع البريطانيين بمجرد أن يستعيدوا واقعيتهم المعهودة، وبأنهم سيكونون حلفاء مناسبين ومهمين للجمهورية الأمريكية الوليدة، بقوتهم البحرية الضاربة، حتى تصبح قوية بما يكفي للدفاع عن نفسها ضد أي معتدي.

وحتى تحين تلك اللحظة، كان على أمريكا محاربة البريطانيين، وقد استمرت الحرب بشدة طوال عامي ١٧٧٩ و١٧٨٠م، وسار الصراع على الطريقة التقليدية في بعض الجوانب. فأحيا البريطانيون عادةَ قضاءِ الشهور الثلجية في الثكنات الشتوية، التي كانت مهملة في قارة أوروبا منذ أيام والينشتين Wallenstein وجوستاف أدولف Gustavus Adolphus. وسر واشنطن كثيرًا أن يفعل مثلهم فعسكر في كامبريدج في عام ١٧٧٥م، وموريس تاون في ١٧٧٦م، وفالي فورج في ١٧٧٧م، وميدل بروك في ١٧٧٨م، وفي موريس تاون مرة أخرى في عام ١٧٧٩م، ونيو ويندسور في ١٧٨٠م، ونيوبيرج في ١٧٨١م، وروكي هيل في ١٧٨٢م. وقد ساعدته فترات وقف القتال والمسيرة تلك في إعادة تجهيز جنوده وتدريبهم، وفي قضاء وقت

أطول في التعامل مع الكونجرس والحصول على المال والإمدادات منه. وكانت مارثا دائمًا برفقته منذ ديسمبر/كانون الأول ١٧٧٥م، وبالفعل قضت ثلثي سنوات الحرب الثماني في معسكر واشنطن أو بالقرب منه، فكانت مصدر راحة لا ينضب له. ويمكن للمرء أن يظن أنه لولا مساندتها وتشجيعها له، لربما رأى واشنطن ضغوط قيادته للقوات — بما فيها من إخفاقات وانتكاسات متواصلة — لا تحتمل. علاوة على ذلك، كان برفقة مارثا الكثير من السيدات من بنات الثورة اللائي اعتنين بالجرحى والمرضى، وعملن على تحسين الطعام المُقدم لأفراد الجيش ومكان إقامتهم، ورفعن الروح المعنوية. لقد كان وجودهن أمرًا يفتقر له البريطانيون، وقد أثر في مجريات الأحداث. ولدينا صور لواشنطن وضباطه وهم يسترخون ويلعبون كرة اليد وكرة القدم ويمتطون الخيل ويصطادون الفرائس بمطاردتها أو إطلاق النار عليها.

وكان عجز البريطانيين عن خوض حرب متواصلة ومستمرة في جميع الأحوال الجوية يصب مباشرة في مصلحة واشنطن الاستراتيجية، بيد أن الانتكاسات الأمريكية استمرت. وفي الثاني عشر من شهر مايو/أيار ١٧٨٠م، شن كلينتون هجومًا على الجنوب مستعينًا بقوة ضاربة، فاستولى على تشارلستون وما يزيد على خمسة آلاف أسير. ثم عاد إلى نيويورك، مركز أنصار الملك، تاركًا وراءه إيرل كورنواليس وبرفقته ثمانية ألاف جندي، وفي أغسطس/آب نجح في إلحاق هزيمة منكرة بهوراشيو جيتس في معركة كامدين بكارولينا الجنوبية. وكان واشنطن يواجه مشكلات أخرى يجب عليه أن يعالجها، مثل خيانة بينديكت آرنولد Benedict Arnold، التي اكتشفها في سبتمبر/أيلول ١٧٨٠م في أثناء تفقده لحصن ويست بوينت — وهو الحصن الرئيسي على نهر هدسون — الذي كان آرنولد قد خطط لتسليمه إلى البريطانيين. وذلك بالإضافة إلى حادثتي تمرد خطيرتين، وقعت كلتاهما في قواعد موريس تاون في مايو/أيار ١٧٨٠م ويناير/كانون الثاني ١٧٨١م. كما وقعت حالة تمرد أخرى بين جنود نيوجيرسي في بومبتون في وقت لاحق من شهر يناير/كانون الثاني، لكن واشنطن نجح في قمعها بالقوة،

وأعدم على الفور زعيمي التمرد رميًا بالرصاص في السابع والعشرين من يناير/كانون الثاني.

لكن في غضون ذلك، كان واشنطن يضع استراتيجية مشتركة مع قائد القوات الأرضية الفرنسية، كونت روشامبو Count Rochambeau. وقد خططا في اجتماعهما الذي عُقد في الحادي والعشرين والثاني والعشرين من مايو/أيار في كونيكتيكت لشن هجوم مشترك على مركز الاحتلال البريطاني، نيويورك. وبالفعل حشد الطرفان قواتهما وفقًا لذلك الاتفاق، بيد أنه في الرابع عشر من أغسطس/آب وردت واشنطن أنباء بأن الفريق البحري دى جراسيه Admiral de Grasse سيتوجه بالجزء الأكبر من الأسطول الفرنسي إلى خليج تشيسابيك. وعلى الفور أدرك واشنطن الفرصة الذهبية «لشن هجوم على العدو في أقل جبهاته تحصينًا.» ففي وقت سابق من ذلك الشهر، أنشأ كورنواليس قاعدة محصنة في يورك تاون على خليج تشيسابيك بناء على أوامر أصدرها كلينتون. وكانت تلك الاستراتيجية ستنجح فقط لو أن بريطانيا احتفظت بهيمنتها المطلقة على البحر. وما كان واشنطن ينتظره، ورآه يتحقق أمام عينيه؛ هو أن تفقد بصورة مؤقتة هذه الهيمنة الأساسية. فما لبث أن أصدر أوامره لجميع القوات الأمريكية والفرنسية المتاحة بالزحف إلى الجنوب، مخاطرًا بنقل الكثير منها عن طريق البحر على ظهر السفن الفرنسية. ولبضعة أشهر، كانت السفن الحربية الفرنسية في غرب المحيط الأطلنطي تزيد على نظيرتها البريطانية. وبالفعل، نجح الأسطول الفرنسي في ردع سرية إغاثة بريطانية أقل عددًا في الخامس من سبتمبر/أيلول في معركة تشيسابيك كيب، وأجبرها على العودة إلى نيويورك. وهكذا وجد كورنواليس نفسه محاصرًا مع نقص في الذخيرة ودون أمل في وصول أسطول إغاثة قبل شهور. وفي الثلاثين من سبتمبر/أيلول، حاصر واشنطن يورك تاون بتسعة آلاف جندي أمريكي وسبعة آلاف وخمسمائة جندي فرنسي، ومدافع حصار قوية مزودة بعدد هائل من القذائف. فلم يكن أمام كورنواليس إلا طلب التوصل إلى اتفاق، وبعد يومين استسلم رجاله البالغ عددهم ٧٢٥٠. وكانت «هذه هي النهاية»، كما جاء على لسان لورد

نورث Lord North عندما تلقى الأخبار في لندن. فبعد الهزائم والإخفاقات التي تعرض لها واشنطن، نجح في تحقيق انتصار حاسم باستغلاله لفرصة استراتيجية. كانت تلك اللحظة لحظة جليلة، وتبشر أخيرًا بحلول السلام، إلا أنه لم يحدث إلا بعد مرور زمن طويل — في معاهدة باريس للسلام في الثالث من سبتمبر/أيلول ١٧٨٣م.

وقبل ذلك بوقت طويل، كان واشنطن — الجنرال المنتصر — ينجذب إلى الاتجاه السياسي. وكان يتطلع بشدة للعودة إلى ماونت فيرنون، التي لم يزُرها طوال ثمانية أعوام طويلة إلا في زيارة قصيرة (لمدة ثلاثة أيام) وهو في طريقه إلى يورك تاون. وكان بالفعل قد فقد ابنة زوجته العزيزة، باتسي، وفي الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني ١٧٨١م، تُوفي ابن زوجته جون بارك كاستيس، أو جاكي، الذي كان من ضمن ضباطه المعاونين في يورك تاون، إثر إصابته بمرض «حمى التيفوس»، مخلفًا وراءه أرملة وأربعة أطفال صغار — نشأ أصغر طفلين منهم في ماونت فيرنون. فقد كانت مارثا، التي كانت تواسيه في الثكنات الشتوية، هي نفسها في أمس الحاجة لمن يواسيها.

أدرك واشنطن بوضوح ضعف الكونجرس الجلي من خلال تعاملاته الكثيرة والمؤلمة معه. فقد خاض هو حربًا ناجحة، في حين خاض السياسيون حربًا خاسرة. ولا شك في أن فرانكلين قد اضطلع بدور مهم في إشراك فرنسا في الصراع، بينما لم يقدم الآخرون إلا اسهامات محدودة. فلم يقدم جون آدامز لجورج واشنطن إلا مساعدات قليلة في دفع رواتب الجيش وتزويده بالإمدادات، بينما كان يطلق تعليقات نقدية لاذعة على قيادة واشنطن للجيش، ولم يقم جيفرسون هو الآخر بدور فعال، وقد كانا نادرًا ما يحضران جلسات الكونجرس. ولم يجد الجنرال واشنطن قائدًا سياسيًّا يمكنه الوثوق به، وقد كان ذلك الشعور المناهض للسياسة سائدًا بقوة بين ضباط الجيش. وشاعت أحاديث حول إلغاء الكونجرس وتأسيس حكومة قوية يكون واشنطن هو حاكمها المطلق — وهو الفكر ذاته الذي أدى إلى تحول بونابرت إلى الإمبراطور بونابرت بعد عقدين من الزمان.

وكان العقيد لويس نيكولا Colonel Lewis Nicola — وهو أيرلندي ينتمي للبروتستانت الفرنسيين (هوجونوت)، ويبدو أنه لم يكن وثيق المعرفة بواشنطن وكان من نوعية الأجانب الذين يميلون إلى الإيديولوجيات والذين لا يثق واشنطن بهم — متسرعًا بما يكفي لأن يكتب الاقتراح إلى واشنطن في خطاب، وتسلم الرد الماحق الذي يستحق الاقتباس بالكامل لما يعكسه عن واشنطن عندما ثار بداخله الغضب من أجل الدستور:

«سيدي ... لقد قرأت الآراء التي أرسلتها إليّ بإمعان وبمزيج من الدهشة الشديدة والذهول. وتأكد أنه لم يحدث خلال هذه الحرب ما آلمني أكثر من العلم بوجود مثل هذه الأفكار بين صفوف الجيش كما ذكرت، ولا يسعني إلا النظر إليها باشمئزاز واستنكارها بشدة. وفي الوقت الحالي، ستبقى تلك الآراء حبيسة بداخلي إلا إذا أُثير الأمر مرة أخرى مما يستدعي كشف النقاب عنه.

وإنني أتساءل في حيرة عميقة عن السلوك الذي صدر عني ويمكن أن يكون قد شجعك على إرسال ذلك الخطاب، الذي يبدو لي مثقلًا بأكبر أذى قد يلحق ببلادي. وانطلاقًا من معرفتي بذاتي، إن لم أكن منخدعًا فيها، فلن تجد إنسانًا أكثر مقتًا لمخططاتك مني. وفي الوقت ذاته، ولأكون صريحًا يجب أن أضيف أن لديّ رغبة صادقة — أكثر من أي شخص آخر — في رؤية الجيش يحظى بمعاملة عادلة؛ وسأبذل كل ما في وسعي لاستعمال صلاحياتي وسلطتي الدستورية من أجل تحقيق تلك العدالة إذا ما أتيحت الفرصة لذلك. وأناشدك، إن كنت تحمل أي احترام لوطنك أو اهتمام بحياتك أو ذريتك أو احترام لي، أن تتخلص من هذه الأفكار من ذهنك وألا تنقل أية أفكار مماثلة، على لسانك أو على لسان أي شخص آخر.»

وهكذا رفض واشنطن أن يتوج ملكًا على نحو أكثر حزمًا من كرومويل Cromwell، بل وفعل أكثر من هذا. ففي مارس/آذار ١٧٨٣م، جرى تداول

أوراق مجهولة المصدر (كتبها في الواقع الرائد جون أرمسترونج John Armstrong) في نيوبيرج، تطالب الكونجرس بتعويض الجيش عما تعرض له من ظلم، ولا سيما فيما يخص الرواتب. وهنا كان يحوم شبح جيش كرومويل النموذجي الجديد مهددًا القوات المدنية. ساورت واشنطن شكوك، وكان محقًّا فيها، في أن كبار الضباط، من أمثال الجنرال هوراشيو جيتس، يتعاطفون مع ذلك الانقلاب العسكري المحتمل، وخشي أن يكون الضباط «يترنحون على شفا جرف سحيق» من أسفله «هاوية من الرعب المدني» تهدد «بإغراق إمبراطوريتنا الصاعدة في الدماء».

وبناء على ذلك، دعا واشنطن لعقد اجتماع مثير للضباط في الخامس عشر من مارس/آذار، ووضع كل ما لديه على المحك: شخصه وسمعته وسلطته، محاولًا أن يسبر غور المشاعر التي كان يعلم أن الجميع تقريبًا يكنونها له. ويسرد صامويل شو Samuel Shaw، الذي كان حاضرًا، ما حدث قائلًا:

> «في المواقف الأخرى كان الجيش يدعمه، أما هذه المرة فقد وقف واشنطن بمفرده وحيدًا … فكان يبدو على خلاف مع قواته وليس قائدًا لهم. ومرت لحظة مفزعة بدا فيها أن هدف الجيش يتعارض مع هدف قائده. وما إن تحدث واشنطن، حتى تبدد كل شك وتدفق تيار الوطنية من جديد في مساره المعتاد.»

لم تظهر تلك الواقعة أن واشنطن خطيب رائع عندما يكون ثائرًا فحسب، بل أكدت أيضًا أنه شديد الدهاء. وقد كتب مسودة خطبته بيديه ووضع الكلمات بحروف كبيرة متعمدًا لأنه في قراءتها قام بحركة مسرحية وأخرج نظارة القراءة الجديدة. وقد استغرق بعض الوقت للتركيز مع الحضور ثم قال: «أيها السادة، معذرة. لقد شاب شعري وأنا في الخدمة معكم، وأجد نفسي الآن أفقد القدرة على الرؤية.» قد يجد البعض ذلك الكلام عاطفيًّا مستهلكًا، لكنه حقق الهدف المنشود، ومن ثمَّ أصبح الحضور ينصتون بانتباه. ثم توجه إلى الكونجرس واستخدم بمهارة ما أطلق عليه «ميثاق

الضباط العظيم» لإقناعه بتلبية جميع الطلبات المشروعة للجيش دون أية إشارة إلى خطبته أو حتى إلى موقف بعض الضباط العدائي. وقد أخبر الكونجرس أن ما يقوم به الجيش «لا يؤكد تمسكهم بالعدالة فحسب، بل سيزيد أيضًا من شعورهم بامتنان هذا الوطن لهم». كانت هذه مقطوعة رائعة من المنطق الانتقائي، التي حولت ببراعة حالة انقلاب محتمل إلى فرصة حقيقية لاتباع سلوك قانوني ودستوري. وبالفعل يمكن للمرء أن يقول إنها كانت أفضل لحظات واشنطن.

استقال واشنطن من منصبه القيادي فعليًّا في أنابوليس بولاية ميريلاند في الثالث والعشرين من ديسمبر/كانون الأول ١٧٨٣م، عندما تنحى رسميًّا عن منصبه بوصفه قائدًا عامًّا للقوات أمام الكونجرس الذي كان قد منحه إياه في يونيو/حزيران من عام ١٧٧٥م. وجاء ذلك بعد أن حقق السلام بين القوى المدنية والعسكرية في الدولة الجديدة، وبعد أن ودع ضباطه في الرابع من ديسمبر/كانون الأول في احتفال غمرته العواطف الجياشة. وأعلن أنه لن يشغل أي منصب حكومي مرة أخرى أبدًا، وكان جواده ينتظره خارج الباب، فامتطاه وانطلق في طريقه إلى ماونت فيرنون في اليوم التالي.

لم يُفاجأ أي ممن كانوا يعرفون واشنطن جيدًا بقراره، أما الآخرون فقد ذهلوا، بدرجات متفاوتة، من إخفاق فساد السلطة في التأثير على هذه الحالة الوحيدة. ولا شك أنها كانت لحظة نادرة في التاريخ. وفي لندن، توجه الملك جورج الثالث بالسؤال إلى الرسام أمريكي المولد بنيامين ويست Benjamin West عما سيفعله واشنطن بعد أن انتصر في الحرب. فأجابه ويست: «يُقال إنه سيعود إلى مزرعته»، فقال الملك: «إذا ما فعل ذلك، فسيكون أعظم رجل في العالم.»

الفصل الخامس

تأسيس أمة: النظرية

عند عودته إلى ماونت فيرنون أخذ واشنطن يتفحص وضعه الشخصي ووضع الأمة، وكان قد بلغ الثانية والخمسين من عمره. وقد تدهورت مزرعته وأراضيه بعد غياب دام ثمانية أعوام، ونتيجة لتباعد تلك الأراضي، كان من الصعب عليه الإشراف عليها بنفسه. وهو ما جعله يفكر مجددًا أن مشكلة أمريكا الرئيسية تكمن في المسافات الشاسعة؛ فقد كانت الأراضي مترامية الأطراف وآخذة في الازدياد كل عام، ولم تكن وسائل الاتصال تواكبها. ويمكن اعتبار واشنطن أول أمريكي علماني، وذلك لأن بعض الواعظين من حركة «الصحوة الكبرى» Great Awakening زاروا جميع المستعمرات عندما كان طفلًا؛ وفي الواقع كان إشعالهم لفتيل اعتناق ديانة عامة هو أول ما أعطى المستعمرات الثلاث عشرة إحساسًا بالقومية. وقد جاءت الصحوة الدينية تمهيدًا للصحوة السياسية والعسكرية. لكن واشنطن كان قد سافر إلى أماكن أبعد من أي شخص من غير الواعظين. وكان يعرف الكثير عن الحدود، فلقد دافع عن سبعمائة ميل منها في المدة بين ١٧٥٨–١٧٦٩م مستعينًا بخمسمائة جندي فقط. وكان دائم التنقل، إذ إن إحدى أقوى سماته الشخصية الفضول الجامح (والعملي في الوقت ذاته). فعند حضوره «الكونجرس القاري الأول» الذي عُقد في فيلادلفيا في عام ١٧٧٤م، زار أماكن في أمريكا أكثر من أي من النواب الآخرين، الذين كان معظمهم يرحل عن وطنه للمرة الأولى. علاوة على ذلك، خاض واشنطن الحرب عبر تسع من المستعمرات الثلاث عشرة، وتسنت له معرفة أجزاء شاسعة من البلاد

بحميمية أثارت بداخله ألمًا، لكن أيضًا باحترام متقد الحماس لإمكانياتها. وأخذت رؤيته لأمريكا كبلد متوحد تزداد، وقد عززت هذه الرؤية المزيد من الرحلات قبل انعقاد المؤتمر الدستوري وعلى مدار شغله منصب الرئيس، عندما قام بعمليتي مسح شامل للبلاد شمالًا وجنوبًا. وتظهر مذكرات واشنطن أن ما شغل باله بصورة رئيسية كان أثر المسافات المتباعدة على الاقتصاد والحياة الاجتماعية والفرص المتاحة. فكان اتخاذ أية خطوات من شأنها زيادة سرعة التنقل بين تلك المسافات أمرًا رئيسيًّا لمستقبل البلاد، ولاحظ أن عربات السفر التي تجرها الخيول تنطلق ثلاث مرات أسبوعيًّا من نورفولك بفيرجينيا إلى بورتسموث بنيو هامبشاير، إلا أن الرحلة من ريتشموند إلى بوسطن بالعربات التي تجرها الخيل قد تستغرق اثني عشر يومًا. فقد كان هناك طريق واحد جيد لسير العربات نحو المناطق الداخلية من البلاد، لكن الطرق والعربات والدروب التي تقع في جنوب فيرجينيا كانت سيئة للغاية، حتى إن الناس كانوا يفضلون السفر عبر البحر، وهذا دليل مؤكد على وجود اقتصاد نقل بدائي.

لقد جعلت أمريكا من السفر السريع الذي يمكن الاعتماد عليه الممتد على نطاق واسع والرخيص والآمن جوهر مهارتها على المستوى المدني، منتهجة بذلك سبيل بريطانيا، واستطاعت التفوق عليها بدرجة كبيرة. وكان واشنطن الرائد في ذلك، حيث إنه أدرك مبكرًا أن مشكلة المسافات الشاسعة يمكن التغلب عليها عن طريق الاستخدام الحكيم لأنهارها الهائلة، نظرًا لأنه سافر عبر بعض أشرسها. وفي عام ١٧٦٩م، حاول واشنطن تشجيع استخدام القنوات ذات الهويس بغرض تحسين الطرق المائية الطبيعية، مثل نهري بوتوماك وأوهايو. وقد كانت القناة (المتصلة بطرق توصيل البريد المحسنة) القوة التي دفعت عجلة الثورة في مجال النقل في القرن الثامن عشر، مثلما كان دور البخار في القرن التاسع عشر، ومحرك الاحتراق الداخلي في السيارات والطائرات في القرن العشرين. وتظهر دفاتر يوميات واشنطن أنه ما إن انتهت الحرب حتى التفت إلى مسألة القنوات مرارًا وتكرارًا. وفي سبتمبر/أيلول ١٧٨٤م، سافر عبر سلسلة جبال الليجاني بغرض فحص

أراضيه الغربية من ناحية، وليخطط أيضًا لمسارات القناة (وطرقها) بهدف ربط روافد نهر أوهايو بنهر بوتوماك. وقد غطى مساحة تصل إلى ٦٨٠ ميلًا، وكان كثيرًا ما ينام في الخلاء، وزوده تدريبه كماسح للأراضي بقدرة نفيسة على فهم الخطط التي يمكن تطبيقها. وقد دعا إلى عقد اجتماع في ماونت فيرنون مع مندوبين من فيرجينيا وميريلاند في مايو/أيار من عام ١٧٨٥م لفض النزاعات القائمة حول الاستفادة القصوى من الطرق المائية المشتركة، وترأس ذلك الاجتماع. وكان منزل واشنطن في ذلك الحين ضخمًا بما يكفي لاستقبال الاجتماع، وقد ترأسه واشنطن ببراعة فائقة، حيث إنه لم يتحدث إلا قليلًا لكنه عمل على تشجيع أكثر الحضور إيجازًا على التحدث، حتى إن ذلك أدى إلى المطالبة بعقد مؤتمر قومي حول التجارة بين الولايات، والتي كانت خطوة أولى نحو مؤتمر دستوري لاستبدال اللائحة التأسيسية البالية التي صيغت في عجالة. وفي شهر مايو/أيار أصبح واشنطن رئيس شركة بوتوماك للملاحة، مفوضًا بموجب عقد مشترك من ميريلاند وفيرجينيا لتحسين الطرق وإنشاء القنوات في أرجاء المنطقة. وكما هو الحال دائمًا، طالب واشنطن مرارًا وتكرارًا بتطوير سريع للمنطقة، مؤكدًا أن أضمن طريقة لربط المستعمرات الموجودة بوادي أوهايو بالولايات وتشجيع إنشاء مستعمرات جديدة؛ هي توفير وسائل نقل مُحسنة إلى الوادي بأكمله. ويظهر حجم الجهود الهائلة التي بذلها واشنطن في خطاب أرسله جيمس ماديسون James Madison إلى توماس جيفرسون في باريس:

> «من الصعب أن أصف لك الجدية التي يصف بها المشروع، والتي تؤكد أن عقلًا مثل عقله الذي يحمل الكثير من الأفكار العظيمة التي طالما أنشغل بها؛ لا يمكن أن يكون به مساحة فارغة. ولا شك في أنه لم يكن ليختر الانشغال بمسألة تستحق الاهتمام بعد ترسيخ الحقوق السياسية لبلاده أكثر من دعم الأعمال الهادفة لتحسين مميزاتها الطبيعية بصورة شاملة ودائمة؛ الأعمال التي ستضاعف من قيمة نصف الأراضي داخل مجموعة ولايات الكومنولث، وتوسع نشاطها التجاري وتربط مصالحها بمصالح الولايات الغربية.»

وبالطبع، عجل واشنطن الإجراءات التي أدخلت خطة بوتوماك حيز القانون، ثم حيز الخدمة النشطة. وكانت المشكلة الوحيدة تكمن في القرار الذي اتخذته فيرجينيا بمنحه حصتها القانونية التي تبلغ عشرة بالمائة، امتنانًا لخدماته العسكرية والجهد الذي بذله في دفع الخطة قدمًا. وقد تسبب ذلك القرار للجنرال في إحراج شديد؛ نظرًا لأنه لم يكن يرغب في قبول تلك الحصة لتعارض ذلك مع مبدئه الخاص بفصل الخدمة العامة عن المصلحة الشخصية، بيد أنه من ناحية أخرى لم يرغب في إهانة مجلس فيرجينيا. وفي النهاية، توصل الطرفان إلى تسوية تقضي بقبوله لتلك الحصة مع تحويلها إلى صندوق للمنح التعليمية. والخطابات الكثيرة المليئة بالقلق التي كتبها واشنطن إلى أصدقائه حول هذه المسألة الشائكة تكشف مرة أخرى ما يمكن أن يُطلق عليه كبرياؤه الأخلاقي، أو رغبته المفرطة في أن تكون جميع التصرفات الصادرة عنه بمنأى عن أي نقد، وأن تُرى على ذلك النحو.

وفي الوقت نفسه، كان واشنطن يركز جهوده على الزراعة، ويستمتع بحقيقة أن باستطاعته الانغماس من جديد في إعجابه العميق بالإنجازات الكبيرة التي حققها الإنجليز، أكثر أمة متقدمة في تربية الماشية وزراعة المحاصيل الغذائية. وقد كتب آرثر يانج Arthur Young، رئيس تحرير المجلة الدورية «أنالز أوف أجريكالتشر» Annals of Agriculture والخبير النظري الرائد في إنجلترا، كتب إلى واشنطن، وأجابه الجنرال بحماسة لم تخل من الانتقاص المعتاد من معرفته ومهارته: «لطالما كانت الزراعة من بين أكثر الأشياء التي أفضلها في حياتي مع أنني لم أكن شديد البراعة فيها قط، ولم يضف انصرافي التام عنها مدة تسع سنوات شيئًا إلى المعرفة التي تُستوعب بصورة أفضل عن طريق الممارسة.»

إن خطاباته الطويلة والمتعددة إلى يانج تعج بمعلومات حول الزراعة الأمريكية، وتتناول في معظمها مساوئها، فيقول: «لا بد أن الفلاح الإنجليزي سيزدري الزراعة لدينا، أو أنه سيحمل فكرة بغيضة عن أراضينا» عند مقارنة حجم المحصول لكل أكر. استغل واشنطن كتابات يانج بصورة

كاملة، وسعى إلى تحقيق أعلى معدل انتشار لها في الولايات المتحدة، ورسخ قنوات اتصال بين مؤلفها والمزارعين التقدميين. ذلك بالإضافة إلى إحضاره مدير مزرعة إنجليزي، واستيراده لبذور ونباتات ومعدات إنجليزية، وحمار إسباني استخدمه لتحسين سلالة البغال. وكان يملك في ذلك الوقت في ماونت فيرنون ٣٠ حصانًا و٢٨٣ خروفًا و٣٣٦ من الماشية، علاوة على عدد هائل وغير معروف من الخنازير التي كانت تنطلق بحريتها دون قيود. وكان يمتلك ٣٢٢ عبدًا، لم يكن يعمل منهم سوى ثلثهم لكبر سن الباقين أو مرضهم أو حداثة سنهم. وقد عاد وأعلن عزمه على القضاء على العبودية، وإيمانه بإمكانية تحقيق ذلك. فكتب يقول: «إن من أجلّ أمنياتي أن يجري تبني خطة تقضي تدريجيًّا وبخطى ثابتة وغير ملحوظة على العبودية في هذه البلاد.» ولم يكن تحول العبودية إلى الأسوأ واستمرارها سوى أحد الهموم التي كانت تزعجه. ومنذ عودته من الحرب وإدراكه الواسع لميزات أمريكا الكامنة، أحبطه ضعف الكونجرس وجموده، وعجزه عن القيادة نظرًا لضعف نفوذه. لقد تحولت الهموم التي كانت تثقل كاهله وهو جنرال في زمن الحرب إلى هموم مدنية وهو رجل اقتصاد تقدمي وممارس لكل من زراعة الطعام والصناعة (فقد عمل في طحن الدقيق وصنع الطوب، وفي غيرها من المجالات لصناعة السلع التي تعرض للبيع). وكان يقض مضجعه الخوف من أن تدمر النزاعات القائمة بين الولايات — كالنزاع بين ولايتي ميريلاند وفيرجينيا حول طاقة الأنهار — الجمهورية الشابة الهشة؛ إلا إذا كانت الحكومة الفيدرالية — أو العامة كما كان يطلق عليها (بنبرة عسكرية مميزة) — تتمتع بقوة كافية للفصل في تلك النزاعات. وبناء على ذلك، كانت أهمية المؤتمرات والخطط التي تتعلق بنهر بوتوماك والتي روج لها أكبر من قضية المياه.

عُقد مؤتمر أنابوليس في المدة بين ١١ إلى ١٤ سبتمبر/أيلول عام ١٧٨٦م، لمتابعة ما تم التوصل إليه في مؤتمر بوتوماك عن طريق إبرام اتفاقيات أوسع بشأن التجارة بين الولايات. وقد أصدر المؤتمر، بعد إلحاح من واشنطن؛ قرارًا يدعو ممثلين من جميع الولايات للاجتماع في فيلادلفيا

في الرابع عشر من مايو/أيار عام ١٧٨٧م «ليعبروا عن رغبتهم في إضافة أي نصوص يرونها ضرورية لجعل دستور الحكومة الفيدرالية ملائمًا لاحتياجات الاتحاد الضرورية.» وقد أصبح ذلك ضرورة ملحة بسبب وقوع حدث أصاب واشنطن بقلق شديد، ألا وهو «تمرد شيز»؛ فكان دانيال شيز Daniel Shays مزارعًا مفلسًا من ماساتشوسيتس، ونقيبًا سابقًا في جيش واشنطن. وفي خريف عام ١٧٨٦م، قاد ثورة ضد الضرائب المفروضة، شارك فيها المزارعون الفقراء مثله الذين تمت مقاضاتهم لتخلفهم عن دفع الضرائب. فتجمعوا في سبرينج فيلد، محل انعقاد المحكمة العليا للولاية، وأجبروا هيئتها على فضها فزعًا. وفي يناير/كانون الثاني، قاد شيز ألفًا ومائتي رجل مسلحين بشوكة رفع القش أو المذراة وبنادق صيد بدائية صوب ترسانة سبرينج فيلد؛ بغرض سرقة بنادق المسكيت والاستيلاء على مدفع. وقد تفرقوا في نهاية الأمر، إلا أن مطاردة بعضهم استمرت إلى فبراير/شباط من عام ١٧٨٧م قبل وقت قصير من عقد المؤتمر. وقد كانت بعض تصريحات شيز حول نواياه التدميرية تملأ الصدور رعبًا، ولم يكن هناك أي شيء يمكن أن يقنع واشنطن بالحاجة إلى حكومة مركزية أقوى في ذلك الحين أكثر من هذا. وكان معظم مؤيدي الدستور في عصره متأثرين بجون لوك John Locke، لكنه — بفضل أليكسندر هاميلتون Alexander Hamilton — قرأ أيضًا أجزاء رئيسية من كتاب هوبس Hobbes «اللفياثان» Leviathan، الذي يركز على السلوك الفوضوي في الطبيعة الإنسانية في حالتها الفطرية، والحاجة إلى رمز عملاق مصطنع يتسم بالدستورية «ليخشاه الجميع». وكان شيز، في رأيه، تجسيدًا للفوضى الخارجة على القانون، وقد أثبت قرار ولاية ماساتشوسيتس بتخفيض الضرائب المباشرة إذعانًا لممارساته العنيفة أن الحكومات ستظل جبانة دائمًا في ظل عدم وجود «الرمز العملاق المخيف». وكان المبدأ الرئيسي لفكرة واشنطن عن الحكومة يتمثل في فرض الضرائب من أجل دفع رواتب الجنود النظاميين المسلحين المدربين لفرض النظام.

ومن ثم فقد وافق على حضور المؤتمر بعد أن أبدى اعتراضه المعتاد، حيث إنه كان يُدفع دائمًا إلى دائرة الشهرة، فوصل إلى فيلادلفيا في الثالث

عشر من مارس/آذار عام ١٧٨٧م (مرتديًا زيًّا مدنيًّا)، وانتخِب رئيسًا للمؤتمر فور اكتمال النصاب القانوني في الثالث والعشرين من الشهر نفسه. فقد كان هو الاختيار الجلي والصائب، وترأس الاجتماعات ببراعة، ويساعد انتخابه في توضيح سبب نجاح المؤتمر في وضع الأمور قيد التنفيذ بتلك السرعة، فتبنى الدستور بالاقتراع في الخامس عشر من سبتمبر/أيلول، ثم تم التوقيع عليه بعد يومين، ثم انفض المؤتمر. ونظرًا لأنه كان رئيسًا للمؤتمر، تمتع واشنطن بميزة تتمثل في أنه لم يكن من المنتظر منه الاشتراك في المناقشات؛ ولم يتدخل في حقيقة الأمر إلا مرة واحدة للمساعدة في خفض وحدة السكان الأساسية للتمثيل من أربعين ألفًا إلى ثلاثين ألفًا، وهو الأمر الذي أقدم عليه فقط بغرض ضمان التوصل إلى اتفاق. وكان قادرًا على الاضطلاع بدور سلمي خلال المناقشات، بمزيج من الصبر والحزم واللطف، داعيًا جميع الحضور إلى إظهار سلوك حكيم والإيجاز في الحديث لنيل موافقته. وكان موقفه الشخصي يتمثل في الاعتدال المدروس، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الآن موقفًا هادئًا. وللتأكيد على هذه السمة، استغل واشنطن العطلة التي امتدت من السادس والعشرين من يوليو/تموز إلى السادس من أغسطس/آب للذهاب لصيد الأسماك وزيارة موقع مخيمه القديم بوادي فورج، والاستعداد لالتقاط صورة له، وزيارة حديقة ويليام باترام William Batram النباتية ومتحف الرسام تشارلز ويلسون بيل Charles Willson Peale.

ولا يعني ترأسه للمؤتمر بحيادية أنه لم يكن لديه آراء أو أنه لم يعبر عنها بعيدًا عن الجلسات الرسمية. وفي الحقيقة، لم يكن معظم النواب مشغولين بغير تفصيل رداء يناسب واشنطن ويشعره بارتياح؛ لعلمهم بأنه سيصبح أول زعيم وطني لهم. فكما كتب نائب ولاية كارولينا الجنوبية، بيرس باتلر Pierce Butler: «أخذ الكثير من الأعضاء يتطلعون إلى الجنرال واشنطن رئيسًا، وكَوَّنوا أفكارهم عن السلطات التي سيجري منحها إلى الرئيس وفقًا لإيمانهم بفضائله.» وكان واشنطن يرغب في تحقيق أكبر اتفاق ممكن على الدستور، حتى يضمن أكبر التزام ممكن به فور تشريعه؛ وثانيًا،

كان يرغب في الحصول على سلطات تقديرية واسعة لرئيس الهيئة التنفيذية (وجميع أعضائها) في حالة ظهور عقبات غير متوقعة. وكانت تلك هي وجهة النظر الحكيمة لقائد عسكري متمرس لم يتعلق قلبه بالسلطة من أجل السلطة نفسها، بل كان يعتبرها أحيانًا ضرورة مقيتة، وقد تخللت وجهة نظره الحكيمة تلك ذلك المؤتمر.

كان يعمل لدى واشنطن أيضًا شخصان لم ينالا التقدير الذي يستحقانه؛ فجيمس ماديسون وضع بالفعل دستور فيرجينيا وكتب جزءًا كبيرًا منه، الأمر الذي نال تأييد الجنرال. فاستغل خبرته ومهاراته في العمل على المشروع الدستوري الأكبر من سابقه، والذي كان صنيع يديه بصورة أساسية. وقد دعم واشنطن ذلك أيضًا، إذ كان الدستور هو أكثر وثيقة يمكن أن تضمن موافقة عامة في المؤتمر والتصديق التالي عليها من قبل الأمة (أو «الشعب» كما كان يميل إلى تسميتهم). وثانيًا، تدارك الخطر المتمثل في احتمال أن يخطئ الدستور ويقضي بصلاحيات زائدة لصالح الولايات؛ مما يؤدي إلى تشكيل حكومة فيدرالية ضعيفة — نظرًا لأن ماديسون كان يقع تحت تأثير جيفرسون الذي كان مناهضًا للفيدرالية — تداركه عن طريق مشاركة أليكسندر هاميلتون الفعالة. ومثلما كان الحال في الحرب، كان أليكسندر في ذلك الوقت رجل الدولة والقائد الأقرب إلى واشنطن، وغالبًا ما يكون في مشاورات خاصة معه، وكانت آراؤه محل احترام ليس فقط بسبب تاريخه العسكري اللامع وخبرته القانونية ومعرفته الكاملة بمجموعة هائلة من المجالات، لكن أيضًا لأنه كان من المعلوم أن الجنرال يصغي له.

تبنى الدستور ككل مسودة ماديسون التي كانت تُعرف باسم خطة فيرجينيا، وهو الأمر الذي نال استحسان واشنطن، وتبنى أيضًا — ومرة أخرى بتأييد من الجنرال — تسويتين هامتين، كانت النتيجة النهائية لكلتيهما هي تفضيل نظام فيدرالي قوي. وقد كانت أولى التسويتين هي تسوية كونيكتيكت Connecticut Compromise، التي جسدت خبرة واشنطن العسكرية التي علمته أنه يجب أن يكون الكونجرس قادرًا على فرض الضرائب بحرية، واتخاذ القرارات الحيوية المتعلقة بالجيش والسياسة الخارجية دون القلق

الدائم من الولايات. وهكذا تشكلت الهيئة التشريعية الفيدرالية على النحو الآتي: مجلس النواب، الذي يُنتخب أعضاؤه مباشرة عن طريق التصويت الشعبي في المناطق المحلية، ومُنح سلطة السيطرة على الأموال. ومجلس الشيوخ، الذي اضطلع بالشئون الخارجية خاصة، والغرض منه حماية مصالح الولايات، بحيث كان يشتمل على عضوين من كل ولاية بغض النظر عن عدد سكانها أو مساحة أراضيها، تختارهما الهيئات التشريعية بالولايات. وكانت التسوية الثانية، التي تم التوصل إليها في بداية شهر سبتمبر/أيلول، والتي توجت الصرح التشريعي، تخص قضية الرئاسة. فقد خسر هاميلتون (وليس واشنطن بعد) معركة تشكيل حكومة مركزية، حيث بقيت حكومة لا مركزية أكثر منها مركزية، لكنه (وواشنطن بالطبع) حقق انتصارًا كبيرًا فيما يتعلق بكيفية اختيار الرئيس والصلاحيات التي يجب أن يتمتع بها. فقد نجح هاميلتون — عن طريق التوصل ببراعة إلى تسوية — في أن يجعل انتخاب الرئيس عبر هيئة انتخابية مستقلة تمامًا تعتمد بصورة كبيرة (ومتزايدة بمرور الوقت بالطبع) على المشاركة الشعبية، وليس عبر الكونجرس أو المشرعين بالولايات. وكان ذلك يعني في نهاية الأمر أن الرئيس هو المسئول الوحيد الذي تختاره الأمة بأكملها مباشرة، بكامل السلطة المعنوية التي تمنحها الانتخابات. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك احتمال لأن تصبح سلطاته هائلة؛ فكان يتمتع بحق الاعتراض (الذي كان يقابله اعتراض ثلثي الأعضاء) على تشريعات الكونجرس، كما كان يتمتع بسلطات تنفيذية واسعة للغاية (التي كان يقابلها جزئيًّا سلطة «إبداء المشورة والموافقة» التي يتمتع بها مجلس الشيوخ). لقد أصبحت أمريكا تتمتع برئاسة قوية بالصدفة تقريبًا، أو بالأحرى بمنصب يمكن لأي رئيس أن يجعله قويًّا وفقًا لمتطلبات الوقت. لقد كان أقوى بكثير من أغلب ملوك عصره، فلم يكن ينافسه أو يتفوق عليه غير «الحاكم العظيم»، قيصر روسيا (وكان أقوى من أغلب القياصرة من الناحية العملية)؛ وتقريبًا بقوة نابليون بونابرت الذي ظهر في الجيل التالي في وقت الأزمات، لأن بونابرت لم يكن قويًّا من الناحية العملية إلا بما أوصله إليه نصره العسكري الأخير. وقد مورست

هذه السلطات، التي لا تزال يواريها تراب الغموض الدستوري، مع تقدم التاريخ الأمريكي في القرن التاسع عشر؛ فكان أندرو جاكسون Andrew Jackson أول من مارسها، ثم أبراهام لينكولن Abraham Lincoln. وقد مُنحت تلك الصلاحيات في المقام الأول نتيجة لعلم النواب بأن الذي سينفذها عمليًّا هو الرجل الحكيم المعتدل الذي يترأسهم، والذي طالما أثبت — بادئ ذي بدء — أنه لا يمكن لأي منصب أن يفسده ويجعله مولعًا بالسلطة. إن الدستور الأمريكي ثمرة عمل مجموعة صغيرة من الرجال الأكفاء، إنهم «الآباء المؤسسون». لكن هناك ما يدعونا لأن نقول إن جورج واشنطن كان أكثرهم تأثيرًا، ليس بصوته ولكن بصمته العام وحضوره وتاريخه الحافل بالاهتمام بمصلحة وطنه وتقديمها على مصلحته الشخصية، والقرارات الحاسمة التي كانت أبلغ من أي كلام.

وكانت عملية التصديق على الدستور لا تقل أهمية تقريبًا عن صياغته؛ وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت واشنطن تواقًا لضمان نجاح التصديق عليه عن طريق التوصل إلى حلول وسط. وتوضح المادة السابعة من الدستور أن عملية التصديق أجريت على أربع مراحل، بداية من موافقة الكونجرس القديم للولايات الكونفدرالية، ثم عرضه على كل ولاية على حدة، ثم انتخاب نواب في كل ولاية لدراسته، وأخيرًا تصديق أولئك النواب عليه في تسع ولايات على الأقل من الولايات الثلاث عشرة. وما إن قبلت الولاية التاسعة بالدستور، حتى صار قانونًا. وكان إقرار الدستور بالأغلبية بدلًا من الإجماع نصرًا مهمًّا لمؤيدي الفيدرالية، ولواشنطن الذي راقب مراحل العملية الأربعة بشغف وثقة متزايدة. فقد رأى أن الولايات الأربع الكبرى: نيويورك وبنسلفانيا وفيرجينيا وماساتشوسيتس، ستصدق على الدستور وتحسم المسألة عمليًّا. وكان يؤمن أيضًا بأن الشعب يرغب في التوصل إلى قرار، ولذا أيد إجراء التصديق بوساطة نواب منتخبين انتخابًا مباشرًا. وقد كان محقًّا في المسألتين، وفي موقفه من المناقشة العامة الكبيرة التي سبقت التصويت على التصديق؛ فلم يشترك في المناقشة بأي شكل لاهتمامه بالاحتفاظ بآرائه لنفسه، إلا في بعض الخطابات الخاصة. لكن آراءه كانت

معروفة أو يمكن تخمينها، وقد استجاب لها الشعب. وكانت المناقشة تُجرى بكلمات شفهية مؤثرة ومطبوعات رائجة. وقد تأسست أول جريدة أمريكية يومية على مستوى لائق في عام ١٧٨٣م، وهي جريدة «فيلادلفيا إيفينينج بوست» Philadelphia Evening Post، وفي نهاية ثمانينيات القرن الثامن عشر أخذت الصحف اليومية والأسبوعية في التزايد بسرعة. وكان واشنطن ذاته يأخذ عشر صحف، بصورة منتظمة، ويقرؤها في أثناء تناول طعام الإفطار، وكان يشتري أيضًا العديد من الكتيبات ويقرؤها ويحتفظ بها. ومع أنه كان يتابع المناقشات الدائرة من ماونت فيرنون باهتمام شديد، فلم يتدخل قط. نعم كان يرغب في أن يُصَدَّق على الدستور، لكنه كان «عاقد العزم على ترك مميزات الدستور تحسم المسألة وحدها، وترك الرجال ليتخذوا قراراتهم استنادًا إلى آرائهم.» وقد صدقت نيويورك على الدستور في يوليو/تموز من عام ١٧٨٨م، ليبلغ عدد الولايات التي صدقت عليه إحدى عشرة ولاية، وتضمن بذلك إقرار الدستور. وبحلول الصيف، كان ذهنه خاليًا من الهموم؛ فقد كانت الأمة الجديدة في طريقها لتحظى بحكومة مناسبة تحظى بموافقة الجميع. وكان الأمر الوحيد الذي يؤرقه هو أنه سيكون مطلوبًا منه إدارتها، وهي مسألة باتت حتمية في ذلك الوقت؛ وكان هو قد قَبِلَ المهمة في نفسه، قبل وقت طويل من اجتماع هيئة انتخاب الرئيس في الرابع من فبراير/شباط من عام ١٧٨٩م، وقبل أن تصوت بالإجماع على تنصيبه. وهنا، خضع واشنطن لآخر اختبار عظيم في حياته.

الفصل السادس

تأسيس أمة: التطبيق

أُخطِر واشنطن رسميًّا بتوليه الرئاسة عندما بلغ عدد أعضاء الكونجرس الفيدرالي الأول النصاب القانوني في السادس من أبريل/نيسان عام ١٧٨٩م، فأسرع على الفور إلى نيويورك، التي كانت العاصمة المؤقتة. وقد اقترض ٦٠٠ جنيه استرليني ليغطي ديونه المستحقة على الفور ونفقات السفر. ومع ذلك، رفض تلقي راتب في بداية الأمر بعد أن أدى اليمين في مبنى البرلمان الأمريكي الأول Federal Hall في الثلاثين من أبريل/نيسان. لكن الكونجرس لم يكن ليسمح بهذا إذ إن أعضاءه كانوا يتوقعون الحصول على رواتب؛ وكذلك كبار المسئولين في الإدارة التي كانت قد تشكلت حينئذ. فقد طالب نائب الرئيس، جون آدامز الذي انتُخِب بنسبة أربعة وثلاثين صوتًا، بالحصول على راتب؛ وكذلك فعل أليكسندر هاميلتون، الذي شغل منصب وزير الخزانة، والذي كان ثريًّا وليس في حاجة إلى المال لكنه كان يؤيد المحامين الذين يصممون على الحصول على مقابل نظير شغل أي من المناصب العامة، والذين شكلوا الجزء الأكبر من الإدارة. وكان جيفرسون، وزير الخارجية، يدعم موقف واشنطن — من حيث المبدأ — لكن نظرًا لأنه كان غارقًا في الديون، شعر بارتياح عندما تراجع الرئيس عن موقفه، وقبل تقاضي راتب سنوي بلغ خمسة وعشرين ألف دولار.

وكان موضوع كيفية حصوله أو حصول أي شخص آخر على راتبه بصورة منتظمة موضع نقاش، نظرًا لأن الحكومة الفيدرالية كانت مفلسة

وعملتها عديمة القيمة. فكان أول إجراء اتخذه هو تكليف هاميلتون — البارع في المسائل المالية الذي كان يناقش المشكلة مع غيره من خبراء نيويورك منذ السنوات الأولى من ذلك العقد — أن يرسخ أساسًا قويًّا يضع عليه الموارد المالية للدولة مهما كلف الأمر. وقد جاء ذلك الوضع نتيجة لإقرار الكونجرس إصدار سندات اعتماد بقيمة ٢ مليون دولار أمريكي في عام ١٧٧٥م، أُطلق عليه «كونتينتالز» Continentals لتمويل الحرب. وبنهاية عام ١٧٧٩م، وصلت قيمة سندات الاعتماد التي صدرت إلى ٢٤١٫٦ مليون دولار أمريكي، لم تمثل إلا جزءًا من الديون التي تضمنت قروضًا أجنبية وقروضًا حكومية وسندات قروض الولايات المتحدة وغيرها من السندات التي تسببت في أسوأ تضخم في تاريخ الولايات المتحدة. وبحلول عام ١٧٨٠م، لم يعد لسندات الاعتماد «كونتينتالز» أية قيمة حقيقية، وفي عام ١٧٨٢م، وجد الكونجرس أن ديونه بالعملة الصعبة تساوي ٢٧ مليون دولار أمريكي، ومع ذلك كان عليه أن يستمر في إصدار المزيد من السندات لسداد الفوائد المستحقة، نظرًا لأنه لم يكن له سلطة قانونية لفرض الضرائب. وبحلول بداية عام ١٧٩٠م، وصلت الديون الداخلية للحكومة الفيدرالية إلى ٤٠ مليون دولار أمريكي، والديون الأجنبية إلى ١٣٫٢ مليون دولار أمريكي، وذلك رغم مساعدة الولايات لها. وتدهور سعر سندات الكونجرس ليصل سعر السند إلى مبلغ يتراوح بين ١٥ و٣٠ سنتًا عن كل دولار. وكانت تلك بالضبط هي الكارثة التي حلت بجميع الحكومات الجديدة في أمريكا اللاتينية في الجيل التالي، والتي لم يتعاف منها بعضها قط؛ وكان ذلك هو المصير المشترك للولايات الجديدة التي نشأت في القرن العشرين. لكن واشنطن وهاميلتون اتفقا على أنه يجب على الولايات المتحدة، التي وُلدت من رحم بريطانيا، التي كانت قدرتها على الوفاء بالديون نموذجًا للعالم أجمع، أن تحذو حذو الدولة الأم.

وفي يناير/كانون الثاني من عام ١٧٩٠م، كان هاميلتون قد قدم «تقريرًا حول الاعتمادات العامة» إلى الكونجرس، الذي منح حاملي سندات الاعتماد دولارًا عن كل مئة سند، الأمر الذي قبلوه على مضض، لأنه أفضل من عدم حصولهم على أي شيء. أما عن باقي مبلغ الدين فقد تم مد أجله

وإعادة جدولته في صورة أوراق مالية طويلة الأجل تُسدد بالذهب. بالإضافة إلى ذلك، تحملت الحكومة أيضًا ديون الولايات المتعلقة بالحرب، على الشروط نفسها. لكن ذلك الاتجاه تعرض للهجوم بوصفه غير عادل؛ نظرًا لأن بعض الولايات كانت قد دفعت ديونها بالفعل، مما يجعل تلك التسوية في صالح الولايات المستهترة على حساب المقتصدة. لكن هاميلتون، مدفوعًا بدعم الرئيس الكامل، كان عازمًا على موقفه؛ فالهدف الأعظم يتمثل في التخلص من الدين نهائيًّا، وبدء الدولة من جديد على أساس سليم من الاعتماد والعملة الصعبة. هل كانت الخطة مكلفة؟ وإن يكن؛ فقد كانت إمكانيات أمريكا تبشر بثراء فاحش — ثراء يفوق ثراء بريطانيا من حيث نصيب الفرد. وكانت أسرع طريقة للحصول على تلك الثروة هي إصلاح الشئون المالية، وخاصة عن طريق الحصول على حق الاقتراض بتكلفة منخفضة في السوق العالمية. هل عادت الخطة بالنفع على الأغنياء الذين كانوا يحملون العملة الورقية؟ بالطبع. وكان هاميلتون يعلم، حتى وإن لم يبح بذلك، أن ألفي عام من التاريخ أثبتت أن اقتراحات الدولة المالية التي لا تعود بقدر من النفع على الأثرياء، لا تلقى أي نجاح على الأرجح. فنفذ هاميلتون خطته وساعده في ذلك صفقة غريبة عرضها جيفرسون — تقرر بموجبها إقامة العاصمة الفيدرالية الجديدة على نهر بوتوماك بدلًا من إقامتها في مكان أبعد إلى الشمال في مقابل التصويت في صالح التقرير — وسرعان ما ثبتت صحة وجهة نظره. وعندما بدأ تنفيذ الخطة في عام ١٧٩١م، وصل الدَّين الفيدرالي على كل فرد إلى ١٩٧ مليون دولار أمريكي (معدل بقيمة الدولار الحديث)، وهو الرقم الذي لم يصل إليه مرة أخرى حتى نشوب الحرب الأهلية. وبحلول عام ١٨٠٤م، انخفض الدين إلى ١٢٠ مليون دولار أمريكي، ثم في عام ١٨١١م إلى ٤٩ مليون دولار أمريكي. ونتيجة لذلك، لم تجد أمريكا مشكلة في جمع النقود دون معاناة عندما أرادت اقتراض مبلغ ١١,٢٥ مليون دولار أمريكي في عام ١٨٠٣م لتمويل عملية شراء لويزيانا — أعظم صفقة شراء أراضي في التاريخ. وفي غضون ذلك، استطاع واشنطن إدارة الحكومة دون أن تثقل مشكلة الدين المستعصية

كاهله وتلقي بظلالها على كل خطوة يتخذها. من المستحيل تقدير حجم ما يدين به كل أمريكي إلى هاميلتون لإعداده لتلك الخطة الجريئة، وإلى واشنطن الذي دعمه بحزم حتى اضطر الكونجرس لتنفيذها.

لم يُدر واشنطن إدارته على أساس حزبي، فقد كان يكره التحزب؛ وكان عليه أن يسمو فوقه بصفته رئيس الدولة والحكومة. وبالفعل سما فوق التحزب من حيث إنه لم ينتمي إلى أي من المجموعتين اللتين تشلكتا آنذاك — الفيدراليون بزعامة هاميلتون الذي كان يرغب في تكوين حكومة مركزية قوية على غرار النموذج الإنجليزي-الأوروبي؛ أو أنصار جيفرسون الذي كان يفضل اللامركزية ومنح السلطة إلى الولايات بقوة. وكانت الأحداث والضرورات الفعلية تدفع الرئيس في اتجاه الفيدراليين، لكن الكثير من مصالحه كمالك أراضٍ من فيرجينيا تدفعه في اتجاه مناصرة جيفرسون. غير أن هدفه كان إدارة كلتا المجموعتين معًا كمجموعة واحدة متضافرة، وبالطبع إدارة مجلس الوزراء كمجلس يمثل المناطق وليس الأحزاب. لكن لم يكن يخفى على أحد حقيقة أن هاميلتون كان أكثر الأشخاص نفوذًا في البلاد بعد الرئيس. وقد كان جيفرسون مستاءً من ذلك الوضع، لأنه كان أعلى مكانة من هاميلتون من الناحية النظرية لكونه وزيرًا للخارجية. لكن هاميلتون كان يتمتع بنفوذ نابع من دعم واشنطن الكامل والفعال له. وفي تلك المرحلة، تولت وزارة الخزانة مسئولية جميع المهام غير الموكلة لأي من الوزارات الأخرى، فعلى سبيل المثال، كانت الوزارة مسئولة عن إدارة البريد، حيث يعمل ٣٢٥ شخصًا، أي ما يزيد على نصف الموظفين الإداريين في الحكومة. وكان هاميلتون يعمل على توسيع نفوذه باستمرار؛ فبالإضافة إلى التقرير الذي وضعه عن الديون، طلب منه واشنطن (والكونجرس) وضع تقريرين آخرين: أحدهما عن بنك وطني، قام هاميلتون بتوسعيه ليصبح بنك الولايات المتحدة، على غرار بنك إنجلترا. ولم يكن واشنطن على علم بالأمور المصرفية، لكنه كان يعلم من تجربة مريرة أن الولايات المتحدة في أمس الحاجة إلى نظام مصرفي حقيقي، وأن مثل ذلك النظام لن ينشأ دون مساعدة فيدرالية. وكان معجبًا ببنك إنجلترا، وحملَ سندات الدين الحكومية

الممتازة التي أصدرها ذلك البنك سنوات عدة؛ وكان يحصل على الفائدة ربع السنوية في موعد الاستحقاق بالضبط، ويرى رأس ماله يزيد من حيث قيمة عملة الولايات المتحدة. أما جيفرسون، فقد رأى أن البنك ما هو إلا رمز آخر للحكم المركزي الاستبدادي.

وكان جيفرسون معارضًا بشدة لتقرير هاميلتون الذي يوصي بتقديم بعض الدعم الفيدرالي لأصحاب المصانع بالولايات المتحدة. فقد آمن، كما كان واشنطن يؤمن أيضًا في مرحلة ما من الناحية النظرية، بتأسيس أمريكا على غرار الإمبراطورية الرومانية، حيث كان أصحاب الأراضي والمزارعون هم مصدر الثروة. لكن واشنطن اكتشف، عندما كان قائدًا للجيش، مدى أهمية الصناعة المحلية لتوفير بنادق المسكيت والمدافع والذخيرة والملابس العسكرية. وعلى كل حال، شارك واشنطن هاميلتون في وجهة نظره الواقعية التي تشير إلى أن الوقت قد فات على بناء دولة أمريكية على غرار دولة الرومان؛ فعصر الصناعة كان يغزو العالم بالفعل. وكان الكثير من المشروعات العزيزة على قلب واشنطن التي ترمي إلى التوسع وزيادة سرعة السفر بين الأراضي المتباعدة؛ يتطلب ورش عمل ومصانع وطرقًا وكباري وطرقًا رئيسية وقنوات. وكان قد قابل جون فيتش John Fitch بالفعل وناقش معه خططه المتعلقة بتسريع حركة النقل عبر القنوات عن طريق أنواع جديدة من قوى الدفع، بما في ذلك (بدءًا من ١٧٨٩م) البخار. وفي عامي ١٧٨٧ و١٧٨٨م، افتتح أول مصنعين كبيرين للنسيج: للقطن والصوف، في نيو إنجلاند. لذلك دعم الرئيس سياسة هاميلتون، مع شعوره بجميع الهواجس الممكنة؛ وانطلقت أمريكا خلال توليه الرئاسة نحو النمو الصناعي الذاتي.

يجب أن ندرك أن مجلس وزراء واشنطن كان يضم معارضين للاتجاه الفيدرالي السائد، لمدة ما على الأقل، ويرجع الفضل في إمكانية تحقيق ذلك إلى صبر واشنطن ونبل أخلاقه واتساع أفقه. وتختلف الآراء المعاصرة حول مدى حسن إدارته لمجلس الوزراء، والمسمى نفسه لم يكن مستخدمًا حتى عام ١٧٩٣م؛ لكن الاجتماعات المنتظمة مع جيفرسون وهاميلتون ونوكس والنائب العام راندولف Randolph، بدأت في الانعقاد منذ بداية

عام ١٧٩١م بهدف مناقشة السياسات، وخاصة ما يتعلق بما إذا كانت القرارات والتشريعات الرئاسية (مثل قانون إنشاء بنك الولايات المتحدة Bank Act) دستورية — وهو الموضوع الذي طالما حرص واشنطن على أن يطمئن من زملائه بشأن صحته. وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلته حريصًا على استقطاب رجال أصحاب آراء سياسية مختلفة إلى دائرة المقربين إليه. ولم يكن جون آدامز، نائب الرئيس والمشغول مع مجلس الشيوخ؛ يُدعى عادة إلى تلك الاجتماعات، الأمر الذي كان أحد أسباب نقده الشديد لرئيسه. فكان يطلق على واشنطن، مدفوعًا بشعور بالغيرة والمرارة؛ «الغبي المسن»، وقال عنه إنه في الأصل ممثل يلعب دور رئيس يدير دولة لا يحكم قبضته عليها تمامًا. «لكننا جميعًا [في الإدارة] اتفقنا على تصديقه، وأن نجعل العالم أجمع يصدقه.» وأضاف أن كل ما يبدو على واشنطن من تفكير عميق يرجع إلى كتاب رولين Rollin «التاريخ القديم» Ancient History، «لكنني سأحمل أدق الأسرار معي إلى قبري.» وكان تيموثي بيكرينج Timothy Pickering الذي شغل حتى ذلك الوقت مناصب: المدير العام للبريد، ووزير الحرب، ووزير الخارجية؛ أكثر انتقادًا لواشنطن. فقد قال عنه إنه كان كثيرًا ما يغفو في مجلس الوزراء، ولم يقرأ التقارير قط، ونادرًا ما كتب أيًّا من خطبه، وكان يحتاج إلى علامات تُرسَم بالطبشور على الأرض تحدد له أين يقف في حفلات الاستقبال الرسمية. وبصورة عامة، كان شخصًا جاهلًا وغير كفء وعديم الشأن، يرتفع على أكتاف فريق العمل لديه. لكن في مقابل تلك الاتهامات الصادرة عن شخص فظ سريع الغضب، هناك الكثير من الأدلة التي تثبت أن هذه الاتهامات لا تستحق حتى تكرارها؛ فإن واشنطن، على سبيل المثال، كان يتحرى دقة شديدة في إنجاز أعماله الكتابية.

في واقع الأمر، كان واشنطن ممثلًا بدرجة ما؛ وكان يحب لعب دور «الرجل المسن» إذا استدعت الحاجة. وقد أدى تلك المشاهد الصغيرة — مثلما فعل عندما كان يتحدث إلى ضباطه في نيوبيرج — التي يتلمس فيها طريقه وصولًا إلى نظارته وتكرار قوله: «لقد شاب شعري في خدمة بلادي، وأجد نفسي الآن أفقد القدرة على الرؤية.» كذلك كان يتظاهر بأنه يفقد أعصابه،

فقال جيفرسون، الذي كان مخدوعًا في واشنطن إنه كان «مخيفًا في غضبه». فإذا ما تعرضت نزاهته في أي وقت للطعن في مجلس الوزراء، كان «يقسم لهم»، ويقول: «إنه كان يفضل، قسمًا بالإله، أن يكون في مزرعته على أن ينصَّب إمبراطورًا للعالم!» ولم يستغل قط سلطته أو يتباهى إلا في حديث عرضي على انفراد حيث يذكّر زملاءه بأنه انتصر في الحرب — بمفرده تقريبًا في بعض الأحيان — في حين لم يضطلع أي منهم بأي دور في الحرب، بالطبع باستثناء هاميلتون ونوكس (وكلاهما من أتباعه). وقد لاحظ جيفرسون بعين محايدة أن: «قلبه كان رقيقًا في مشاعره تجاه الآخرين، إلا أنه كان يقدر قيمة كل رجل بدقة، ويمنحه تقديرًا راسخًا يتناسب مع قيمته.»

كان واشنطن يعيش في نيويورك — عندما كان يشغل منصب الرئيس — حياة لائقة لكن غير متكلفة. فكان عدد العاملين في منزله ضئيلًا وصل إلى أربعة عشر فقط — أقل مما كان لديه في ماونت فيرنون — وكان عدد موظفي أمانة السر لديه ضئيلًا، وكان عبء العمل عليه ثقيلًا. وكان أحيانًا يفضل أن يعطي انطباعًا عن نفسه أنه أكثر كسلًا مما كان عليه (مثلما فعل رؤساء ناجحون بعد ذلك مثل: كوليدج Coolidge وأيزنهاور Eisenhower وريجان Reagan). فقد كان ينجز الكثير من الأعمال الأساسية فيما بين الفجر ووقت تناول وجبة الإفطار، عندما لا يكون أحد موجودًا. قال جيفرسون إنه كان يقيم الكثير من المناسبات الرسمية لتجنب الاحتكاك المباشر بالعامة الذين كان يشك بهم؛ واتهم الرئيس بأنه كان يجلس على أريكة على منصة. (هذه النقطة الأخيرة كانت إشاعة وغير حقيقية.) في الواقع، رأى واشنطن بدهاء أن أغلب الناس يرغبون في أن يقيم لهم رئيس الدولة مراسم احتفال، الأمر الذي أعاد رونالد ريجان اكتشافه عندما أعاد بروتوكول التشريفات الفخم في البيت الأبيض، عقب فترتي رئاسة فورد وكارتر اللتين غلب عليهم الطابع غير الرسمي. وبالفعل كانت المآدب الرسمية التي يقيمها واشنطن تميل إلى أن تكون طويلة ومملة، ويتخللها الكثير من الأجزاء البطيئة. يقول السيناتور ماكلاي Maclay، الذي كان ذا لسان لاذع مثل آدامز وبيكرينج: «لم ينجح أي شعاع مبهج ترسله الشمس المبهجة في

اختراق ظلام الجدية الراسخة في وجه. وبين كل وجبة طعام أو شراب، كان واشنطن يقرع على الطاولة بسكين وشوكة، كأنها عصا القرع على الطبول.» (لكن ماكلاي في ذلك الوقت كان ينتقد الجميع: فكان ماديسون «عديم الشأن»، وآدامز «قردًا يرتدي سروالًا»، وجوفيرنور موريس Governeur Morris «نصف مبعوث ونصف قواد.») وقد أخذ البعض على واشنطن أنه كان يحاول تجنب المصافحة العامة، وكان، بدلًا من هذا، ينحني على الطريقة الإنجليزية القديمة. لكن سلوكه كان يتسم بلياقة في طريقها إلى الاندثار بالفعل، كذلك كانت المصافحة من يد الرئيس الضخمة والقوية قادرة على سحق العظام، لذا كان الضيوف الأضعف، ولا سيما السيدات، يفضلون الانحناء بإجلال.

ويمكن دحض إدعاء جيفرسون على واشنطن بأنه كان يرغب في وضع حواجز في البروتوكول بينه وبين العامة بمحاولته الدءوبة أن يقابل أكبر عدد ممكن منهم — ليس في قاعة استقبال بنيويورك ولكن في أحيائهم. ولم يحاول أي من خلفائه المباشرين أن يرى البلاد، وقد كانت جولتا واشنطن التاريخيتان حدثًا مهمًّا لمئات الآلاف من المواطنين الذين رأوه — وأصر الكثير منهم على مصافحته وتقديم «لفافة تبغ» له — وكانت فرصتهم الوحيدة لرؤية رئيس حي. وما أعظمه من مشهد لأسر افتقرت حياتها المملة إلى البهجة! وكان لدى الرئيس عربة بيضاء، كانت مستعملة لكن الأخوان كلارك Clarke Brothers من فيلادلفيا أعادا بناءها مقابل ٩٥٠ دولارًا. وكان سائق العربة ألمانيًّا يُدعى توم فاجان Tom Fagan، وكان طويلًا ومفتول العضلات، يجلس على صندوق مُغطى بجلد النمر؛ وبجانبه الرائد جاكسون Jackson، الضابط المرافق للرئيس. وكان على متن العربة أيضًا الخادم الشخصي وجندي مشاة، وخلف العربة فارس يمتطي جوادًا. وكانت هناك عربة خفيفة لنقل الأمتعة، وخمسة من الخيول المعدة للركوب؛ بما في ذلك الفرس الشهير بريسكوت Prescott، الذي كان أبيض اللون ويبلغ ارتفاعه أربعة وستين بوصة، والذي خاض مع الرئيس سبع معارك، وكان مماثلًا لحصان دوق ويلينجتون المسمى كوبنهاجن Copenhagen

وحصان نابليون الذي كان يحمل اسم مارينجو Marengo. وكان صوت الأبواق والأصوار يدوي معلنًا وصول العربة في أي موقع، فيهرع الجميع لمشاهدة الرجل الذي حقق لهم الحرية ويزورهم في ذلك الوقت وفقًا للقانون الجمهوري. وكان واشنطن يقوم بتلك الرحلات بدافع الفضول وبغرض اكتساب معرفة نافعة، وأيضًا لعلمه بأن «الشعب» يرغب في رؤيته. وكانت سفرياته غالبًا غير مريحة بدرجة كبيرة، وخطرة أحيانًا، وقد أوشك على الغرق في أثناء عبوره لنهر سيفيرن بالقرب من بالتيمور، وهو على متن زورق. ويذكر واشنطن: «كنت في خطر داهم نتيجة لعدم براعة العمال على متنه وحماقة أسلوبهم في الإبحار.» فغاصت العربة البيضاء وكل من فيها في مياه نهير أوكوكوان كريك التي امتلأت بالزبد. إن التنقل في الريف الأمريكي في تسعينيات القرن الثامن عشر، كان من المستحيل أن يسمح لأي شخص، مهما علا شأنه، أن يحافظ على هيبته الرسمية. لكن واشنطن نجح في الحفاظ على احترام الجميع، حتى وهو يسافر في ظروف شاقة أو يستمع إلى خمسة عشر نخبًا مسهبًا، بالإضافة إلى الخطب، في مأدبة عشاء مملة في قرية بميريلاند. وقد أشار توبياس لير Tobias Lear، الذي كان يحتفظ بدفاتر واشنطن، إلى أنه كان «الرجل الوحيد تقريبًا الذي يتمتع بشخصية عظيمة ولا يفقد أي جزء من احترامه في علاقة وطيدة.» فكان يسب لكنه لم يتذمر قط، ومع أنه كان بالفعل يثور عليهم، لكنه أيضًا كان يضحك عندما تفرقع سرج الخيل أو يتناثر الطين عبر نافذة العربة المفتوحة.

الرئيس، الذي كان كثير الترحال، كان رجل أفعال لا كلمات، إذا اقتضت الحاجة. ففي عام ١٧٩١م، أصر هاميلتون على أن الكونجرس يجب أن يفرض ضريبة استهلاك، ولا سيما على الويسكي (هذا بالإضافة إلى التعريفة الجمركية على البضائع المستوردة التي بلغت ٨٪، والتي فرضها في ١٧٨٩م)، وذلك بهدف تسديد الدين وتغطية نفقات الحكومة الفيدرالية. رأى بعض ساكني الحدود، الذين كانوا يصنعون الويسكي واعتبروه عملتهم الوحيدة — فنادرًا ما ربحوا نقودًا أو استخدموها — أن تلك الضريبة تهدد

وجودهم. وقد شعر الكثير أن حربهم المتواصلة مع الهنود — بالنيابة عن الجميع — تعد شكلًا من أشكال الخدمة العامة التي يجب أن تعفيهم من الضرائب. وكان أولئك الرجال عدوانيين ومسلحين ويعتقدون أنهم على حق. وكانوا يرون أن قانون ضريبة الاستهلاك لا يقل سوءًا عن قانون الدمغة الذي رفض آباؤهم الخضوع له، وأصبح الامتناع عن دفع الضريبة أمرًا معتادًا. وفي يوليو/تموز من عام ١٧٩٤م، حاول الضباط القائمين على تنفيذ القانون الفيدرالي احضار ستين ممن اشتهروا بالتهرب من الضريبة للمثول أمام المحكمة في فيلادلفيا؛ الأمر الذي أدى إلى اندلاع أعمال شغب مسلحة، قُتل خلالها جندي أمريكي وأضرمت النيران في منزل رئيس محصلي الضرائب. علاوة على ذلك، رفض ميفلين Mifflin، حاكم بنسلفانيا، إرسال الميليشيا بالرغم من أن هاميلتون بعث إليه طلبًا مباشرًا ليرسلها.

اعتبر واشنطن ذلك الموقف تمردًا وخيانة، فخول هاميلتون سلطة تجنيد خمسة عشر ألفًا من رجال الميليشيا من ميريلاند وفيرجينيا ونيوجيرسي، إضافة إلى بنسلفانيا، وإرسالهم تحت قيادة الجنرال هنري لي General Henry Lee. وهكذا سارت قوة عسكرية تزيد على أي قوة خضعت لقيادة واشنطن المباشرة عبر سلسلة جبال الليجاني، بقيادة هاميلتون الذي تلقى أوامر شخصية بإنجاز المهمة على أكمل وجه من الرئيس والقائد العام للقوات الذي كان على أتم الاستعداد لأن يخوض المعركة بنفسه. اختفى المتمردون، وقال جيفرسون مستهزئًا إنه «التمرد الذي لم يُعثر عليه.» وقد أدين اثنان من زعماء التمرد، لكن واشنطن لم يأمر بإعدامهما، لأنه رأى أنه توصل إلى إثبات نقطة مهمة، ولا حاجة إلى ردع المعارضة الداخلية للقانون الدستوري باستخدام القوة الفيدرالية، سواء في حياته أو بعد موته.

وبالفعل كان من ضمن إنجازات واشنطن أنه منح أمريكا حكومة فيدرالية قادرة على التصرف بحسم عند الحاجة، وهو أمر متأصل ضمنًا في سلطات الرئيس. وقد شعر الكثير من خلفائه بالامتنان له، وفي الوقت نفسه، كانت أمريكا في حاجة إلى دستور يضمن الحرية؛ ومعظم الولايات في موافقتها على التصديق عليه كما هو، قد أضافت ملحقًا ينص على أن

من أول المهام التي على الكونجرس الفيدرالي الجديد الاضطلاع بها تشريع وثيقة للحقوق Bill of Rights بغرض حماية حرية الفرد وفقًا لوثيقة إعلان الاستقلال. وكان واشنطن يتوق إلى المضي قدمًا في قضية الحقوق بخطى سريعة؛ ومرة أخرى، استطاع — مثلما فعل في مسألة الدستور — الاعتماد بقوة على ماديسون، الذي سبق له أن صاغ إعلان حقوق فيرجينيا في عام ١٧٧٦م، الذي صاغه في الحقيقة جورج ماسون George Mason، الرجل الذي أُعجب به واشنطن كثيرًا نظرًا لحصافته. وفي مرحلة مبكرة من توليه للرئاسة، وضع ماديسون مسودات لعشرة تعديلات على الدستور، نص أولها — وأهمها — على حظر أي عمل تشريعي في المجالات الرئيسية، ومنح المواطنين حرية الأديان والحديث والصحافة والتجمعات وإرسال العرائض إلى الحكومة. أما التعديلات السبعة التالية فتنص على حماية الملكية وحقوق المدعى عليهم، في حين يحمي التعديل التاسع جميع الحقوق التي لم يأت فيها نص صريح. ويتلخص التعديل العاشر في: «إن جميع السلطات غير المخولة للولايات المتحدة بموجب الدستور، وغير المحظورة على الولايات المنفردة بموجبه؛ تحتفظ الولايات كل على حدة أو الشعب بحق التمتع بها.» وجرت عملية إقرار الوثيقة، التي كان معلومًا للجميع أن واشنطن يدعمها، بخطى سريعة، ثم أصبحت قانونًا في الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول ١٩٧١م، عند بلوغ النصاب القانوني للتصديق عليها.

وكان أهم عنصر من عناصر الوثيقة، العنصر المتعلق بالدين. ووفقًا لرغبة واشنطن، لم يرد الحديث عن الدين في الدستور نفسه إلا بإيجاز. ومع ذلك، نجد أن «التعديل الأول»، ومرة أخرى بتأييد من واشنطن، يرفض بصورة خاصة إنشاء كنيسة وطنية، ويحظر على الكونجرس تشريع «أي قانون يتعلق بتوطيد ديانة محددة لتكون الديانة القومية أو يحظر الممارسة الحرة لذلك الدين.» وقد وقع سوء فهم لذلك الحظر في عصرنا على نطاق واسع، وفُسِّر على أنه منع دستوري لأي شيء يتعلق بالدين يحدث بموافقة فيدرالية أو على مِلكيَّة فيدرالية. لكن واقع الأمر كان مختلفًا تمامًا؛ فمثل ذلك التفسير كان يغضب واشنطن الذي كان ينظر إلى ذلك النص على أنه

وسيلة للتصدي إلى أية محاولة لإنشاء كنيسة وطنية لأية طائفة. فقد كان يمقت نموذج البروتستانتية الضعيف والغامض الممثل في الكنيسة الإنجليزية، والنماذج المتعصبة في نيو إنجلاند. إن واشنطن كان بفطرته موحدًا أكثر منه مسيحيًّا، لكنه كان سيثور غضبًا لو أن أحدًا أطلق عليه «غير مسيحي»، ناهيك عن أن يطلق عليه «مناهضًا للمسيحية». فجميع أخلاقياته وأسلوبه وآدابه الاجتماعية متأصلة في المسيحية، التي كان ينظر لها كأعظم قوة عرفها العالم يمكن أن تدفعه إلى التحضر. وكان واشنطن يتمتع بقدرة عظيمة على التسامح؛ وكتب عن المهاجرين، الذين لم يكن يحترمهم بصورة عامة: «إذا كانوا عمالًا ماهرين، فلا مانع أن يكونوا من أسيا أو أفريقيا أو أوروبا، وليكونوا مسلمين أو يهودًا أو مسيحيين من أية طائفة، أو ليكونوا حتى ملحدين.» لكن كان على أولئك الوافدين الجدد أن يعلموا أنهم ينضمون إلى مجتمع تحت راية الإله — أو العناية الإلهية أو «الحاكم العظيم للكون» مثلما كان يفضل أن يقول — وكان الأسلوب الأسمى لعبادة ذلك الإله هو الأسلوب المسيحي. وكانت مجرد فكرة إمكانية تحريف التعديل الأول ليصبح أداة لمنع الممارسات التقليدية للمسيحية ستروعه. فلقد كان عضوًا في الكنيسة المحلية المؤسسة على غرار الكنيسة الإنجليزية سنوات عديدة، لأنه كان يؤمن بأن ذلك إشارة واضحة إلى التضامن مع مؤسسة اعتبرها دعامة إنشاء مجتمع متحضر. لقد كان واشنطن يرى استحالة وجود أمريكا دون أن يكون الدين المصدر الإرادي الأقوى للأخلاقيات.

ومن المهم أن مجلس النواب قد وافق بأغلبية ثلثي الأعضاء — في اليوم التالي لإقرار التعديل الأول في الخامس والعشرين من سبتمبر/أيلول ١٧٨٩م — على قرار يدعو إلى تخصيص يوم وطني للصلاة والشكر، وطلب من واشنطن تحديد ذلك اليوم. وكان نص القرار: «نقر بقلوب شاكرة بالمنن الكثيرة والعظيمة التي أنعم علينا بها الإله القادر، ولا سيما منحنا فرصة لتأسيس حكومة دستورية بسلام من أجل سلامتنا وسعادتنا.» وقد أجاب واشنطن، محددًا عطلة عيد الشكر الرسمية، بكلمات على القدر نفسه من الأهمية: «إن من واجب الأمم كافة أن تقر بعناية الإله القدير، وأن تطيع

أوامره، وأن تكون شاكرة لرحمته، وأن تلتمس حمايته ورضاه … ذلك الإله العظيم والجليل الذي هو المنان المانح لكل ما كان من خير، وما هو كائن، وما سيكون، فلنجتمع لنقدم له شكرًا خالصًا ومتواضعًا لرعايته الرحيمة للشعب وحمايته له.»

لكن واشنطن أخفق في تضمين حكم في وثيقة الحقوق ينص على تحرير العبيد. وفي عام ١٧٨٦م، أقسم ألا يشتري أي عبد أبدًا، وعبر عن رغبته في «القضاء تدريجيًّا وبخطى ثابتة وغير ملحوظة» على العبودية في أمريكا. وربما شعر بالندم لأنه لم يعلن قط عن آرائه بشأن العبودية خلال المناقشات التي أجريت حول الدستور، والتي ترأسها في صمت. أما صديقه جورج ماسون، الذي كان يمتلك عددًا من العبيد يزيد على ما كان لدى واشنطن، فقد هاجم العبودية وبخاصة تجارة الرقيق. وفي الواقع، كانت المادة الأولى من القسم التاسع تخوّل الكونجرس سلطة تنظيم تجارة الرقيق أو حظرها بداية من الأول من يناير/كانون الثاني من عام ١٨٠٨م. لكن واشنطن كان يدرك أن الجنوب لا يمكن أن يصدق على دستور لا يقر بالعبودية بطريقة ما (ويجيزها ضمنيًّا). وقد فعل المؤتمر الدستوري ذلك بطرق ثلاث: فحذف أية إدانة للعبودية؛ وتبنى قاعدة الأخماس الثلاثة التي وضعها ماديسون، التي منحت الولايات التي يجوز فيها امتلاك العبيد قوة إضافية تتمثل في اعتبار العبيد ناخبين على أساس أن كل عبد يعادل ثلاثة أخماس الرجل الحر، في حين يُحرمون بالطبع من حق الانتخاب الفعلي؛ وثالثًا تم تجنب استخدام كلمتي «عبد» و«عبودية» عمدًا في النص. وكان تقديم تلك التنازلات لمالكي العبيد ضروريًّا لإقرار الدستور من الأساس، حيث إن واشنطن رأى أن إقرار دستور جيد والتصديق عليه أكثر أهمية من اتخاذ إجراءات حاسمة بشأن العبودية. وكان ما يرجوه واشنطن — واستمر في رجائه — هو أن يتمكن من القيام بشيء في هذا الصدد بنفسه بصفته رئيسًا. لكن في نهاية الأمر، لم يتمكن إلا من إعتاق عبيده في وصيته (وحتى ذلك العتق جاء بعد وفاة زوجته). ومع ذلك، اعتبر ذلك آنذاك بادرة رائعة من رجل فيرجيني نبيل. إن المأساة كانت تكمن في أنه في أواخر ثمانينيات

القرن الثامن عشر أو في أوائل تسعينيات القرن نفسه كان لا يزال من الممكن الشروع في عملية تحرير العبيد بهدوء دون اندلاع حرب أهلية. لكن عقب تسعينيات القرن الثامن عشر، جعل نمو اتجاه «سيادة القطن» King Cotton الأمر مستحيلًا. وهكذا ضُيعت فرصة إنقاذ «أمريكا المستقبل» من بؤس عظيم، وقد أهدرت هذه الفرصة تحت مرأى ومسمع واشنطن. ويمكن القول بأن هذه هي أعظم إخفاقاته.

كان واشنطن أقل حساسية تجاه موضوع الهنود، الذين أشار إليهم باسم «الهمجيين»، وكانت إحدى شكواه منهم أنهم يسيئون معاملة عبيدهم السود. ولقد تركت معاهدة باريس الكثير من الموضوعات غير المبتوت فيها، ولا سيما على أرض الواقع. فما زال البريطانيون يحتلون حصونًا في الإقليم الشمالي الغربي Northwest Territory كانوا قد تعهدوا بالجلاء عنها في عام ١٧٨٣م، وكان واشنطن يشك في أن عملاءهم ابقوا هنود المنطقة في حالة عداء تجاه المستوطنين الأمريكيين. وكان يفزع من فكرة خوض حرب ضد بريطانيا مرة أخرى، وكان يرفض باستمرار المطالبة بكندا، وكان سيتجنب بالطبع الأخطاء التي وقع فيها جيفرسون وماديسون، والتي أدت إلى اندلاع حرب ١٨١٢م المؤسفة في القرن التالي. لكنه كان مصرًّا على ضرورة قمع المتمردين الهنود بنفس القوة التي كان مستعدًا لاستخدامها ضد المتمردين على الضرائب. وفي عام ١٧٩١م، أرسل واشنطن حملة ضخمة بقيادة الجنرال أرثر سانت كلير Arthur St. Clair ضد هنود الإقليم الشمالي الغربي، وأخذ على عاتقه عناء تحذيره بصفة خاصة من أن يؤخذ على حين غرة. وذلك بالضبط ما حدث في الرابع من نوفمبر/تشرين الثاني، وتعرض سانت كلير لخسائر بلغت أكثر من تسعمائة جندي. فثار الرئيس غضبًا واستبدل به الجنرال أنتوني واين General Anthony Wayne، الذي كان أداؤه أفضل منه. وعلى حد تعبير الرئيس، استطاع «إخماد حماسة الهمجيين وأضعف عزمهم» على شن حرب على الولايات المتحدة. ومع ذلك، وكما يتضح من تعليماته الأصلية التي وجهها إلى سانت كلير في شهر أكتوبر/تشرين الأول عام ١٧٩١م، كان واشنطن قلقًا بشأن مدى «عدالة» الحرب التي يخوضها،

وقد طالب الكونجرس فيما بعد بضرورة استعداد أمريكا «لترسيخ سلام دائم قائم على شروط الصدق والمساواة وحسن الجوار»، وأكد أنه: «لم تظهر أية بادرة صداقة لأي من القبائل الهندية.»

لقد بدأت علاقة واشنطن بالكونجرس، وبخاصة في أثناء فترة الرئاسة الأولى، بمودة وظلت علاقة ودية؛ إلا من واقعة واحدة جديرة بالذكر. ففي بداية فترته الرئاسية الأولى، في ٢٢–٢٤ أغسطس/آب من عام ١٧٨٩م، وافق على الوقوف شخصيًّا أمام مجلس الشيوخ طلبًا «للمشورة والموافقة» على معاهدة مع هنود الكريك. وفي شهر يونيو/حزيران كان واشنطن قد عانى خُراجًا مؤلمًا في ساقه اليسرى، ففتحه بمشرط، لكنه أخذ في الشفاء ببطء، ويمكن أن يكون ذلك جعله سريع الغضب. على أية حال، استاء واشنطن من أسلوب استجواب مجلس الشيوخ، وأقسم ألا يقف أمام الكونجرس أبدًا، وكان ذلك قرارًا حكيمًا احترمه جميع خلفائه. كما أنه لم يكن يخشى استخدام حق الرفض الممنوح له. ففي الخامس من أبريل/نيسان من عام ١٧٩٢م، «رفض» مشروع قرار يعين ناخبين. وكان يرى أن حق الرفض لا ينطبق إلا على مشروعات القوانين التي يرى أنها غير دستورية، وكان ذلك هو السبب؛ فأيد الكونجرس الرفض دون جدل.

وفي تلك المرحلة، كان واشنطن يفكر في العودة نهائيًّا إلى ماونت فيرنون، فأعد مسودة خطاب وداع، وطلب من ماديسون أن يصقله ويهذبه في العشرين من مايو/أيار عام ١٧٩٢م. وكان منزعجًا من العداء المتزايد بين هاميلتون وجيفرسون، الذي انعكس في شكل مشاحنات داخل مجلس الوزراء. وقد رأى، وكان محقًّا، أن هناك حزبين — الفيدراليين، ومن سيصبحون الديمقراطيين (الذين كانوا يطلقون على أنفسهم في ذلك الوقت الجمهوريين أو الديمقراطيين الجمهوريين) — يظهران إلى الوجود، ولم تؤتِ جهوده الشخصية في الصلح بين جيفرسون وهاميلتون ثمارها. علاوة على ذلك، كان واشنطن قد بدأ في الامتعاض من نبرة الصحافة الناقدة؛ وأخذ يتساءل عن سبب اضطراره لتحمل تلميحات تسيئ إلى شرفه. لكن جميع زملائه المهمين حثوه على ترشيح نفسه مرة أخرى، قائلين إنه لا

يمكن الاستغناء عنه، على الأقل في الوقت الراهن. لكن وجهة نظرهم لم تكن هي الحاسمة، فتحدثت إليه السيدات كي يستمر في الرئاسة. وككثير من رجال المعارك الأشداء — مثل ويلينجتون — كان واشنطن يفضل رفقة النساء على الرجال. فعندما تكون سيدة بصحبته، لم يكن يستخدم سكاكين المائدة كعصا القرع على الطبول في وقت العشاء. وقد كان يفضل رفقتهن، حتى على رفقة الشباب الأذكياء والمبدعين من أمثال هاميلتون. ومن النساء اللائي كن يفضلن بصورة خاصة تولي واشنطن الرئاسة لفترة ثانية، إليزا باول Eliza Powell، زوجة سام باول Sam Powell، عمدة فيلادلفيا الأسبق. وكانت إليزابيث مضيفة رئيسية في مدينتها الأصلية، ففي عام ١٧٩٠م، انتقلت الحكومة — وفقًا للاتفاق الذي عُقد — من نيويورك إلى فيلادلفيا لتبقى هناك حتى إنشاء العاصمة الفيدرالية الجديدة على نهر بوتوماك (وكان واشنطن قد اختار بالفعل الموقع الذي تبلغ مساحته عشرة أميال، والذي سيحمل اسمه). ولم يكن ذلك ليحدث قبل أوائل القرن التاسع عشر، وكانت السيدة باول تتطلع إلى واشنطن ليكون بطلها الضرغام الذي تسعى لرفقته على مدار فترته الرئاسية الثانية — في أول نموذج في تاريخ أمريكا لتأثير مضيفة على مجريات الأحداث. ثم تأتي من بعدها هنريتا ليستون Henrietta Liston، الزوجة الفاتنة للمبعوث البريطاني روبرت ليستون Robert Liston. وقد كانت من مؤيدي الرأي (الذي أصبح سائدًا بين سلطات لندن كافة) الذي يقول بأن واشنطن أفضل رئيس محتمل، لمصلحة البريطانيين والأمريكيين. فقد كان «رجلًا حكيمًا» (وهذا هو التعبير المفضل للمدح لدى جين أوستن Jane Austin) ذا «مشاعر جميلة» و«قوة» (قوة الشخصية)، وزاد من «احترام» أمريكا كشريك في عملية التفاوض ودولة صديقة في المستقبل.

وأغلب الظن أن واشنطن قد اتخذ قراره بنفسه، إيمانًا منه بأن السماء الدولية تتلبد بالغيوم، وأن أمريكا بحاجة إلى ربان ثابت ومعتدل ومتمرس ليقود سفينة الدولة. فتراجع عن تهديداته بالرحيل في صيف عام ١٧٩٢م، وفي الثاني من ديسمبر/كانون الأول حصل واشنطن على

جميع أصوات الهيئة الانتخابية التي بلغ عدد أعضائها ١٣٢ عضوًا. وظل جون آدامز نائبًا للرئيس، بحصوله على سبعة وسبعين صوتًا. وسرعان ما أكدت الأحداث ظن واشنطن بأن الشئون الخارجية ستسيطر على فترة رئاسته الثانية. وفي الشهر التالي لتوليه السلطة في الرابع من مارس/آذار من عام ١٧٩٣م، تلقى واشنطن أخبارًا تشير إلى إعلان فرنسا الحرب على بريطانيا. وعلى الفور أشار جيفرسون إلى معاهدة التحالف المبرمة عام ١٧٧٨م بين أمريكا وفرنسا. وسرعان ما وقعت مشاحنة داخل مجلس الوزراء بينه وبين هاميلتون، الذي كان يفضل التزام موقف محايد مع ميله إلى جانب بريطانيا. فأصر الرئيس على إعلان موقف الحياد، وهي سابقة مهمة لسلطة الرئيس في تحديد السياسة الخارجية دون استشارة الكونجرس، إذا ما اقتضت الضرورة والحكمة ذلك. فلطالما أصر طوال فترة رئاسته الثانية على أن الحياد «في مصلحة أمريكا، التي يجب عليها أن تلتزم به بينما تحافظ على جميع حقوقها.» فلقد شعر أن من واجبه، بصفته أول رئيس للولايات المتحدة، أن يؤكد على أن سياسة أمريكا سياسة خاصة بها وحدها تنم عن ولائها لنفسها؛ فلم تكن أمة أوروبية أخرى، مضطرة لاختيار حلفاء واتحادات؛ وإنما كيانًا جديدًا تمامًا يقع على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي، يتخذ قراراته وفقًا لقواعد المصلحة الشخصية التي لا علاقة لها بالضرورة بأوروبا القديمة. وكان واشنطن، بصفته الرئيس، أول المؤيدين لمبدأ الاستثنائية الأمريكية، وكما أخبر باتريك هنري Patrick Henry: «باختصار، أريد شخصية أمريكية يمكن أن تقنع القوى الأوروبية بأننا نعمل من أجل أنفسنا وليس من أجل الغير.» وقد أصر في كلامه مع بيكرينج على أن: «علينا ألا ننسى أبدًا أننا أمريكيون، وذلك سيقنعنا بأن نعمل من أجل أنفسنا وليس من أجل الغير.» وذلك هو ما قاله بعد وقت قصير في خطبة الوداع: «إن كلمة «أمريكي» التي تنسب إليك، بصفتك القومية، يجب أن تثير بداخلك فخر الوطنية المشروع.»

وقد ثبتته على موقفه الأحداث الرهيبة التي كانت تقع في فرنسا: أنهار الدماء المتدفقة في الأقاليم، وإعدام الملك ثم الملكة، والرعب، وعمليات تصفية

الحسابات المتتابعة، وقتل رجال الثورة لمن رأوا أنهم قد يطيحون بهم. وقد حزن بشدة لتشكيل «الجمعيات الديمقراطية» للمتطرفين المناصرين لفرنسا، الذين كان جيفرسون يؤيدهم، وذعر عند وصول إدموند تشارلز جينيه Edmund Charles Genêt، الثائر شديد الغضب، مبعوثًا فرنسيًّا، كجزء من سياسة فرنسا الثورية «محاربة جميع الملوك ومصالحة جميع الشعوب» (القرار الصادر في التاسع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٧٩٢م). وصل جينيه إلى فيلادلفيا على متن البارجة لامبوسكاد L'Ambuscade (الاسم الذي كان يمقته واشنطن) التي قدمت له التحية العسكرية بإطلاق مدافع جانب السفينة، الأمر الذي يخالف أي بروتوكول. وحتى قبل أن يقدم جينيه أوراق اعتماده، دعا الأمريكيين إلى «تشييد معبد الحرية على أنقاض القصور والعروش.» فأثار ذلك حنق واشنطن، فلقد أمضى ثمانية أعوام في القتال والفوز بمعركة شيدت معبدًا لحرية أمريكا خاصًّا بها، غير مخلفة أية قصور أو عروش لتهدم. وفي غضون ذلك، جعل جينيه مركز دعايته جريدة فيليب فرينو Philip Freneau «ذا ناشونال جازيت The National Gazette» التي تقع في ٢٠٩ شارع ماركت ستريت بفيلادلفيا، والواقعة على مقربة من منزل واشنطن. ولم يكن هناك أي عمل آخر يمكن أن يثير الرئيس ضد فرنسا أكثر من ذلك. وأُحضِر فرينو إلى المدينة بغرض إدارة ما اعتبر جريدة المعارضة نتيجة لما سُمي بأول مؤتمر يعقده حزب سياسي في تاريخ أمريكا. وقد جاء ذلك قبل إجراء الانتخابات الثانية بشأن ما يطلق عليه «رحلة استكشافية لدراسة النباتات» في أعلى نهر هدسون، التي ضمت جيفرسون وماديسون وجورج كلينتون George Clinton من نيويورك وآرون بور Aaron Burr، الذي أصبح بعد ذلك رئيس منظمة تاماني السياسية، والذي قتل هاميلتون فيما بعد خلال مبارزته. وقد استغل جينيه صحيفة فرينو للإعلان عن نواياه لتحويل السياسات الأمريكية — «أدعو الكنديين ممن ينتمون إلى جذور فرنسية أن يكسروا قيد الهيمنة البريطانية، وأسلح أهالي ولاية كنتاكي، واقترح القيام بحملة بحرية لتسهيل هجومهم على نيو أورليانز.» واستنكر عدم

حماسة واشنطن للقضية، وقال إنه «سيحول القضية من الرئيس إلى الشعب.»

استشاط واشنطن غضبًا لدرجة لم يعد معها قادرًا على التحمل، فأمر جيفرسون، بصفته وزير الخارجية، أن يهذب «القرد الفرنسي» — وكان طول جينيه قرابة نصف طول الرئيس، وكان ذا شعر قذر لونه أحمر داكن و«ملامح غليظة»، وفم ضخم. فخلد جيفرسون إلى سريره في جبن، مدعيًّا إصابته بصداع نصفي. فأرسل الرئيس إليه خطابًا شديد اللهجة: «هل سيتحدى وزير الجمهورية الفرنسية قرارات هذه الحكومة دون عقاب، ثم يهدد السلطة التنفيذية بعرض القضية على الشعب؟ ماذا سيظن العالم بمثل ذلك التصرف، وبحكومة الولايات المتحدة بخضوعها له؟» فلم يكن أمام جيفرسون إلا التنحي عن منصبه (بداية من الحادي والثلاثين ديسمبر/كانون الأول عام ١٧٩٣م)، وتقرر في اجتماع مجلس الوزراء طلب عودة جينيه إلى بلاده. فأقسم واشنطن عليهم جميعًا قائلًا إنه يفضل «أن يكون ملقى في قبره» على أن يكون رئيسًا، واتهم جيفرسون وغيره من ناقديه أن لديهم «رغبة وقحة في إهانته.» (وفي الحقيقة ظل جينيه في الولايات المتحدة، نظرًا لتلقيه أنباء تفيد بأنه سيُعدم إذا ما عاد إلى فرنسا، فتوسل إلى واشنطن للحصول على حق اللجوء الذي منحه إياه على مضض.)

كان واشنطن شديد الثقة بنفسه في المدة ما بين ١٧٩٣–١٧٩٤م، وهو أمر غريب عليه. فرفض السماح بتجهيز السفن الحربية الفرنسية في الموانى الأمريكية، وتصدى لمطالبات بالانتقام التجاري من السفن البريطانية كرد فعل على استيلاء البريطانيين على السفن الأمريكية التي كانت تتاجر مع جزر الهند الغربية الفرنسية معارضة بذلك نصيحة واشنطن. وعندما بلغ تمرد الويسكي ذروته، لم يخمده بقوة ساحقة فحسب (كما سبق أن ذكرنا)، بل كان يستعرض القوات ويجول معها لمدة قصيرة، ثم اتهم الجمعيات الديمقراطية بتحريض المتهربين من الضرائب (ضربة أخرى موجهة لجيفرسون). وكان من الواضح أنه غير سعيد وغاضب، وصرح بأنه يشعر بأسف عميق لموافقته على تولي الرئاسة لفترة ثانية. إنه «لم يندم قط،

لكن منذ أن أضاع فرصة تخليه عن منصب الرئاسة، أصبح الندم ينتابه كل لحظة.» وعين إدموند جينينجز راندولف Edmund Jennings Randolph ليخلف جيفرسون، لكنه سخط عليه عندما جرى اعتراض رسالة تظهر قبوله رِشًا نظير دفع السياسة الأمريكية في اتجاه فرنسا. وبعد أن تعامل مع راندولف بمكر شديد — إذ إن واشنطن كان قادرًا على أن يكون ماكرًا ذا وجهين إذا ما أراد ذلك — اتهمه فجأة بالخيانة، فقال: «أقسم بالإله الخالد ... أنه أكذب كاذب على وجه الأرض!» وكانت فضيحة راندولف، الذي كان بريئًا على أغلب الظن، مثالًا نادرًا على تصرف واشنطن بطريقة ظالمة؛ وتعكس إحباطه الذي تسببت فيه — أكثر من أي شيء آخر — الانتقادات الحقودة اللانهائية التي تناقلتها الصحف. فكان من ضمن ما اتهمت به الصحافة واشنطن سحب أموال تتجاوز راتبه، والميل إلى إبرام اتفاقية مخزية مع إنجلترا، وأنه «الأب غير الحقيقي لأمريكا».

كان لذلك الغضب العارم نتيجة إيجابية واحدة، ألا وهي اتخاذ واشنطن قرارًا بالتوصل إلى تسوية نهائية مع البريطانيين، فأرسل رئيس القضاة، جون جاي John Jay، الفيدرالي القيادي بنيويورك، إلى لندن بهدف مناقشة شروط التسوية؛ ولا سيما تفادي خوض حرب مع بريطانيا، التي كانت قلوب جيفرسون وأصدقائه المتطرفة تتطلع إليها بشدة. كان جاي سياسيًّا في المقام الأول، واستقال في ١٧٩٥م بغرض خوض انتخابات على منصب حاكم نيويورك. ويرجع الفضل في تعيين واشنطن له رئيسًا للقضاة في المقام الأول إلى فطنته السياسية، نظرًا لأنه كان يرى أن المنصب مماثل لرئيس مجلس اللوردات الإنجليزي الذي عادة ما يكون عضوًا في مجلس الوزراء. إن النقد الموجه إلى واشنطن (وسائر الآباء المؤسسين) هو أنهم لم يعنوا كما ينبغي بالسلطة الثالثة بالدولة — السلطة القضائية — هو نقد صحيح. وقد تركوا المسألة إلى الكونجرس الأول، الذي أصدر قانون السلطة القضائية في عام ١٧٨٩م. وقد صاغ القانون — بتأييد شديد من واشنطن — أوليفر إلسورث Oliver Ellsworth، الذي صاغ تسوية كونيكتيكت، والذي كان الرئيس ممتنًا له. وقد خلق ذلك القانون، في وقت

قياسي، نظامَ محاكم فيدراليًّا ظل ثابتًا فعليًّا لما يزيد على قرنين من الزمن. ولسوء الحظ، لم يدرك واشنطن ومستشاروه أهمية مبدأ المراجعة القضائية (والسلطة المصاحبة المتمثلة في إصدار أوامر للمسئولين الفيدراليين لتنفيذ التعليمات القضائية) في ظل دستور مدون؛ وذلك لأنهم نشئوا في ظل القانون العام الإنجليزي، حيث يقوم القضاة بتفسير القانون باستمرار، ويضعونه. وقد تسبب عدم إدراكهم لتلك الحقيقة في عواقب خطيرة على المستقبل، وبخاصة في القرن العشرين — لكن في الواقع بدأت تلك العواقب تظهر في بداية القرن التاسع عشر في عهد رئيس القضاة مارشال Marshall، الذي استخدم المراجعة القضائية لإنشاء الإطار القانوني للرأسمالية الأمريكية. لو أن واشنطن كان على دراية بإمكانيات القانون الذي يضعه القضاة، لتراجع عن موقفه فزعًا. لكنه لم ينتبه قط إلى تلك المسألة تحديدًا، فلم يرسل جاي إلى لندن إلا لكونه محام سياسي قادر على القيام بمهمة دبلوماسية معقدة.

عاد جاي بما اعتبره واشنطن معاهدة جيدة، لأنها كانت منصفة للطرفين، وبذلك ستدوم على الأرجح. لكن تلك المعاهدة كانت أكبر مصدر إزعاج له في عهد رئاسته. كانت المعاهدة تنص على إخلاء البريطانيين لمواني المنطقة الشمالية الغربية، مما يسمح أخيرًا بالاستيطان الكامل لمنطقة وادي أوهايو، وهو أمر عزيز على قلب الرئيس، وفتحت طريق جزر الهند الغربية التابعة لبريطانيا أمام السفن الأمريكية. علاوة على ذلك، منحت الولايات المتحدة وضع «الدولة الأَولى بالرعاية» في التجارة البريطانية، وزادت حجم الصادرات الأمريكية إلى بريطانيا والمناطق التي تسيطر عليها بصورة هائلة، وزادت حجم الصادرات البريطانية إلى أمريكا (مما أدى إلى زيادة العائدات الواردة من الرسوم التي فرضها هاميلتون على الواردات). ومن الصعب إيجاد معاهدة أفادت كلا طرفيها أكثر من تلك المعاهدة. شعر واشنطن بالسعادة، وأرسل توماس بينكني Thomas Pinckney، الوزير المفوض بشئون لندن، إلى مدريد للتفاوض على إبرام اتفاق مماثل مع أسبانيا. وقد نجح ذلك أيضًا، مانحًا أمريكا القدرة على الوصول إلى وادي المسيسيبي عن

طريق نيو أورليانز، واعتراف أسبانيا بحق مطالباتها الحدودية بالمنطقة الواقعة شرق النهر العظيم، وبشرق فلوريدا وغربها. وبهاتين المعاهدتين، أُزيلت أخيرًا جميع العقبات المتبقية التي كانت تعرقل التوسع الأمريكي الكامل إلى الغرب، في اتجاه وادي أوهايو ووادي المسيسيبي، متوجة العمل الذي كرس له واشنطن حياته.

ولذلك كان من المبرر شعور الرئيس بالغضب الشديد عندما ندد بالمعاهدة جيفرسون وجماعته الصحفية، معبرين عن رأي اللوبي الفرنسي، معتبرينها خيانة لصالح مصلحة البريطانيين. وقد حصل واشنطن على نص معاهدة جاي في السابع من مارس/آذار عام ١٧٩٥م، وحصل على تصديق مجلس الشيوخ عليها في مداولة سرية عُقدت في الخامس والعشرين من يونيو/حزيران، ونشرها في الشهر التالي. ورغم الجلبة التي وقعت عقب ذلك الحدث، قام واشنطن بتوقيع المعاهدة في شهر أغسطس/آب. ودفع مجلس الشيوخ إلى التصديق على المعاهدة مع أسبانيا في الثالث من مارس/آذار ١٧٩٦م. لكنه استشاط غضبًا مرة أخرى في الرابع والعشرين من مارس/آذار عندما صوت مجلس النواب لصالح نشر جميع المستندات السرية المتعلقة بمعاهدة جاي. فرفض رفضًا باتًّا، مشيرًا إلى امتياز حق السلطة التنفيذية في الحفاظ على سرية المراسلات الدبلوماسية. ونتيجة لذلك، اضطر واشنطن إلى خوض معركة سرية شرسة ليجعل المجلس يوافق على تمويل تنفيذ معاهدة جاي، الأمر الذي أقره المجلس كارهًا في الثلاثين من أبريل/نيسان بموافقة أغلبية ضئيلة. وفي ذلك الوقت، كان واشنطن قد سئم تمامًا السياسة والمنصب، وبدأ في إعداد خطاب تنحيه عن الرئاسة. وقد صقل هاميلتون، الذي بقي المستشار الأقرب لواشنطن مع أنه لم يعد يشغل أي منصب في الحكومة؛ ذلك الخطاب في مايو/أيار، ثم نُشر في صحيفة «أميريكان دايلي أدفرتايزر» American Daily Advertiser بفيلادلفيا.

إن ذلك الخطاب العظيم، الذي أعده الرئيس بنفسه بصورة رئيسية، كما توضح مسودته، هو خطاب حكيم وقوي يتضمن نصيحة أخيرة من

جنرال ناجح وسياسي من الطراز الأول، إلى دولة قام هو بتحريرها ووضعها على طريق الحكم الذاتي وتحقيق ازدهار هائل. إنه دعوة قوية، وأحيانًا انفعالية، للوحدة القومية ونبذ روح التحزب (وبخاصة إذا ما كانت تستند إلى أسس جغرافية)، وللحرية الكاملة في اتخاذ القرارات على المستوى الدولي، وتجنب الوقوع في تحالفات. وقد رسم الخطة الرئيسية للتوسع والتقدم الأمريكي حتى مرحلة متقدمة في القرن العشرين، عندما قضت أساليب الحياة العصرية أخيرًا على مشكلة المسافات الشاسعة، وأصبح لزامًا على أمريكا الانضمام إلى العالم كشريك في جميع مشاكله للمرة الأولى. يجب قراءة الخطاب بالكامل، وهو بالفعل يستحق قراءته بالكامل؛ فينبغي لكل طالب أمريكي أن يكون على علم بنصه، الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخنا المعاصر أكثر من إعلان الاستقلال نفسه. إن ذلك الخطاب يمثل ذروة استثنائية لمسيرة واشنطن العامة، وخاتمة ملائمة وممتازة لجهوده الرامية لتحرير أمريكا وجعلها راضية ومزدهرة وقوية.

ولم يخلُ الخطاب من نبرة دينية قوية. وقد تحدث واشنطن إلى «الأصدقاء وأبناء وطني»، وكان يتحدث إلى الكونجرس، ومن خلاله بصفته هيئة لجميع الأفراد الذين شكلوا الأمة. وذكر أنه لم يكن لينجز ما أنجزه لتحرير الأمة وبنائها دون الشعور بتأييدهم له. وقد قال: «وهذه الفكرة مسيطرة عليه تمامًا»:

> «سأحمل تلك الفكرة معي إلى قبري، كحافز قوي للعهود المتواصلة بأن يستمر الإله في إحسانه إليكم بأفضل آيات الإحسان؛ وأن يدوم اتحادكم وتآخيكم؛ وأن يستمر الحفاظ بقداسة على الدستور الحر الذي هو ثمرة جهودكم؛ وأن يتسم تطبيقه في جميع الإدارات بالحكمة والفضيلة؛ وأخيرًا، أن تكتمل سعادة شعوب هذه الولايات — تحت مظلة الحرية — بالحفاظ الحذر على هذه النعمة، وبالاستخدام الحكيم لها، بحيث ينالون مفخرة تزكيتها لجميع الأمم التي لم تطلع عليها بعد، لاستحسانها والتأثر بها وتبنيها.»

وهكذا، اختتم واشنطن حياته العامة، بعد أن أوصى العالم أجمع باتباع نموذج الحكومة الأمريكية. وقد بقي في فيلادلفيا ليرى تقلد خليفته، جون آدامز، للسلطة في الرابع من مارس/آذار من عام ١٧٩٧م، ثم عاد إلى ماونت فيرنون بعد عشرة أيام، يملؤه شعور عميق بالارتياح والامتنان.

الفصل السابع

السنوات الأخيرة

لم يدم تقاعد واشنطن الأخير طويلًا، فقد استمر ثلاث سنوات فقط، لكنه استمتع بتلك الفترة مع كل ما كان يقض مضجعه من هموم. فحفيده من أبناء زوجته، جورج واشنطن بارك كاستيس، لم يُبل بلاءً حسنًا في جامعة برينستون. فأدى الجنرال عنه دينه وأسدى له بعض النصائح. فكان عليه أن يتوقف عن إهدار وقته في «صعود السلالم ونزولها» و«الحديث مع أي شخص يرغب في الحديث إليه»، وكان ينبغي له أن يستيقظ مبكرًا، ويذاكر دروسه بين الإفطار والعشاء، ويمارس رياضة المشي حتى موعد تناول الشاي، ثم يعود إلى مذاكرة دروسه حتى موعد النوم. وكان عليه أن يكون دقيقًا في مواعيد تناول الطعام، نظرًا لأن الخدم كانوا «يركضون هنا وهناك دون أن يعرفوا أين يجدونه.» وكان يمكنه الذهاب إلى الصيد في أيام السبت من كل أسبوع. أما يوم جورج واشنطن فكان منظمًا إلى أقصى درجة. فكان يستيقظ في الخامسة صباحًا، وينهمك في القراءة أو الكتابة حتى السابعة؛ ثم يتناول إفطاره المكون من الشاي وكعك الذرة المغطى بالزبد والعسل. ثم يمتطي جواده ويذهب في جولة غير منتهية لفحص أراضيه. وبعدئذ يعود في الثانية، فيرتدي ثيابه ويتناول طعام الغداء؛ وإن كان هناك ضيوف، يجلس ليتحدث معهم بعد ذلك وهم يتناولون شراب الماديرا. وبعد ذلك، يطالع الصحف، التي كان يبلغ إجمالي عددها عشر صحف، ويكتب الخطابات، فيتناول الشاي في السابعة، ثم ينخرط في الحديث حتى التاسعة، ثم يخلد إلى النوم.

قام جيفرسون بنشر شائعات عن أن «الرجل المسن» أصبح خرفًا — وقد كان ينشر تلك الشائعات بالفعل منذ عام ١٧٩٣م (عندما تشاجرا للمرة الأولى بشأن فرنسا). بيد أن خطابات واشنطن ومجموعة هائلة من المستندات الأخرى توضح أنه كان ذكيًّا ومُجدًّا في العمل وقوي الملاحظة حتى النهاية. وكان يتمنى أن يستمر في خططه الخاصة بتحرير عبيده، الأمر الذي قام به بالفعل في بعض الحالات؛ فقد ترك شطر عبيده السود في فيلادلفيا حتى يتحرروا بصورة تلقائية. لكن خططه المتمثلة في بيع أراض نائية لذلك الغرض، وتأجير أغلبية أراضي ماونت فيرنون إلى مزارعين أكفاء يحتفظون بالعبيد السابقين كعمال أحرار؛ أخفقت بسبب قلة المشترين والمستأجرين. وقد واصل إشرافه المباشر على اثني عشر ميلًا مربعًا من الأراضي، وهي مهمة ليست بيسيرة على رجل تجاوز الخامسة والستين من العمر. لكن زائري ماونت فيرنون شهدوا بروعتها، ومَرْجها الأخضر المذهل في المقدمة، و«ربما كان أجمل مشهد في العالم» هو ما يطالعه المرء من الشرفة. وكان جمال المنزل والحدائق يقارن «بأجمل المنازل الإنجليزية القديمة الفخمة»؛ فتجد بالقرب منه حقولًا مترامية الأطراف من الذرة والقمح ونبات الفصفصة ونبات الكتان والبازلاء ونبات الجاودار. وكانت الطاحونة «تعمل على نحو ممتاز» باستخدام آلية جديدة وحديثة. وكان معمل التقطير ينتج اثني عشر ألف جالون من الويسكي كل عام و«علفًا لذيذًا وكثير العصارة» لمائة وخمسين خنزيرًا ضخمًا «بالكاد يجرون بطونهم المنتفخة على الأرض من كبر حجمها.» وكان هناك أيضًا ستمائة خروف، وأنجب الحمار الذي استورده واشنطن خمسين بغلًا من نسله. وقد صمم واشنطن محراثًا رائعًا كان يريه لزواره، بالإضافة إلى حظيرة جديدة ثمانية الأضلاع، ومرة أخرى انخرط واشنطن في خطط تتعلق بالأنهار والقنوات.

ولم يهمل المحارب المحنك مهام الدولة الأكثر صعوبة، فقد بقيت صورة عائلية لواشنطن، في خلال فترة تقاعده، وعائلته تحيط به، لكنه كان يرتدي الزي الرسمي. فهل كانت تلك إشارة رمزية تعبر عن رغبته — واستعداده — للعودة إلى القتال وقتما تحتاج إليه بلاده؟ لكن على

الأرجح كانت الصورة تشير إلى استدعائه الفعلي إلى القتال في عام ١٧٩٨م عندما لاحت نذر اندلاع الحرب مع فرنسا. فقد قرر الرئيس جون آدامز زيادة الجيش واستدعى واشنطن في يوم الرابع من يوليو/تموز، وهو اليوم الذي له أهمية خاصة، ومنحه رتبة فريق، وجعله القائد العام للقوات. لكن مشورة واشنطن لم تُؤخذ قبل إصدار الإعلان، وقد استاء لخفض رتبته درجة، وكان ذلك الحدث السبب في آخر شجار عصيب في حياته. فكان يرغب في انضمام هاميلتون ونوكس إليه والجنرال تشارلز بينكني قائدًا ثانيًا للقوات. وقد قال إن الجنرال تشارلز «ضابط يتمتع بسمعة عسكرية رفيعة، ويعشق مهنته، وشجاع ونشيط وحكيم»، وبالإضافة إلى ذلك، «لديه العديد من العلاقات القوية وأكثر نفوذًا من غيره في الولايات الجنوبية الثلاث.» وكانت المنطقة الجنوبية مهمة لأنه «في حالة جن جنون الفرنسيين وغزوا هذه الولايات المتحدة علانية وبقوة هائلة ... فإن عملياتهم ستبدأ من الجهة الجنوبية، لأنها الجبهة الأضعف؛ ولأنهم سيتوقعون — نتيجة للمناقشات السائدة في الكونجرس — إيجاد المزيد من الأصدقاء بها؛ ولأنه لا شك في تمكنهم من قلب زنوجنا ضدنا؛ ولأنهم سيكونون على مقربة أكثر من جزرهم ومن لويزيانا.» ويظهر الخطاب أن «الرجل المسن» لا يزال قادرًا على التفكير بصفاء ذهن وبطريقة استراتيجية، وأن طريقة تفكيره تخالف بشدة الأوامر المضطربة الصادرة عن الرئيس جون آدامز. ثم أسرع آدامز بإرسال أسماء هاميلتون مفتشًا عامًا (قائدًا ثانيًا) وبينكني ونوكس برتبة لواء، إلى مجلس الشيوخ بغرض التصديق عليها. أدى ذلك إلى اعتراض ثلاثتهم، فكان على واشنطن أن يستغل كل ما أوتي من صبر يثير الإعجاب ومهارة في كتابة خطابات لاسترضائهم وغيرهم. لكن الشجار أنهك قواه تمامًا، فوقع فريسة للحمى، ونقص وزنه من ٢٢٠ إلى ١٩٠ رطلًا. ومع ذلك، تمكن من الذهاب إلى فيلادلفيا في شهر نوفمبر/تشرين الثاني للإشراف على الاستعدادات اللازمة للحرب. وهناك وجد الأمور مضطربة، لكنه استطاع كتابة مذكرتين، يبلغ إجمالي عدد كلماتهما ثمانية آلاف. وكانت هاتان المذكرتان من أفضل المستندات الحكومية التي كتبها في حياته، وقد

كتبهما بمفرده، نظرًا لأنه اعتذر عن كثرة الأجزاء المحذوفة — فلم يكن لديه متسع من الوقت لعرضهما على السيد لير Lear لنسخهما. وفي الرابع عشر من ديسمبر/كانون الأول، غادر واشنطن متجهًا إلى منزله، لكن هذه المرة ذهب بلا رجعة.

أصبح شغله الشاغل في ذلك الوقت كتابة وصيته، ولا سيما النص على عتق عبيده بعد وفاة مارثا؛ حتى إن ذلك الأمر أصبح هاجسًا يسيطر عليه. وقد وضح المسألة في نص الوصية قائلًا: «أوصي بمنح جميع العبيد الذين أملكهم حريتهم بعد وفاة زوجتي. ومع رغبتي القوية في إعتاقهم أثناء حياتها، أجد أن ذلك سيصاحبه صعاب جسام نتيجة لتزاوجهم والزنوج التابعين لزوجتي، مما سيتسبب في إثارة مشاعر مؤلمة بشدة — إن لم يتسبب أيضًا في عواقب وخيمة لدى الزنوج التابعين لزوجتي — في حين يخضع كلاهما إلى نفس المالك، وذلك نظرًا لأنه ليس من حقي، بموجب عقود امتلاك الزنوج التابعين لزوجتي، أن أعتقهم.» ثم تبع ذلك فقرات تفصيلية عن إطعام وكساء العبيد المحررين غير القادرين على إعالة أنفسهم، وتعليم الأطفال ورعاية اليتامى. وأضاف: «وأمنع صراحة بموجب هذه الوصية بيع أي عبد أملكه عند موتي أو نقله خارج الولاية المذكورة [فيرجينيا]، بأية ذريعة كانت.» ويعكس إصراره هذا علمه بأن المصير الذي كان يخشاه العبيد أكثر ما يخشون هو تفرق العائلات إلى الجنوب الأدنى نتيجة لبيعهم بالمزاد العلني أو «التخلي عنهم». وهذا ما حدث بالفعل للعبيد التعساء الذين كان جيفرسون يمتلكهم؛ فبعد أن أمضى عمره يحارب العبودية بلسانه، خلف جيفرسون ديونًا ضخمة جعلت ورثته يضطرون لبيع جميع عبيده، من رجال ونساء وأطفال في السوق بأي سعر. ولحسن الحظ، فديون واشنطن التي كانت — كما جاء في نص الوصية — «قليلة، ولا يطلق على أحدها دينًا ضخمًا»؛ دُفعت نقدًا من أمواله. تضمنت الفقرة التي تتناول مسألة العبيد، وهي الأكثر أهمية في الوصية (فيما عدا الفقرة التي تسبقها والتي ترك بموجبها ضيعته لمارثا للانتفاع بها في حياتها) تحذيرات شديدة لمنفذي الوصية لكي ينفذوا وصيته بشأن العبيد بدقة — فيجب أن «تُنفذ

بدقة مفرطة ... دون مراوغة أو إهمال أو إبطاء.» وكانت هناك فقرة خاصة أيضًا عن ويليام لي، تابعه المخلص الذي كان يمتطي الخيل معه في الصيد وميدان المعركة.

لقد كانت الوصية — كما كان متوقعًا — تتسم بالدقة والتفصيل والعدل والإنصاف؛ ويبدو أن الجنرال كتبها بنفسه مع حصوله على مساعدة قانونية. وقد أُلحق بالوصية قائمة بممتلكاته التي بلغت ستة وتسعين ميلًا مربعًا، والتي كدح للحصول عليها. إن هذه الوثيقة دقيقة ومفصلة بشكل مذهل، وأوضحت أن واشنطن مات وهو يملك ٥٣٠ ألف دولار أمريكي متمثلة في أراضي ومواش فقط، مما يجعله أحد أغنى أغنياء أمريكا.

لقد ظل الجنرال يعمل حتى الرمق الأخير، وكان كثيرًا ما يذهب إلى موقع ولاية واشنطن ليشاهد مدى تقدم بناء عاصمته، وكان يريد أن تضم جامعة خاصة بها (فقد كان الاهتمام المتزايد بتعليم الشباب تعليمًا مناسبًا سمة تميزت بها السنوات الأخيرة من عمره)، وهو الأمر الذي أشار إليه في وصيته. وكان يكتب خطابات حول الجيش والشئون البحرية. وكان يتابع باهتمام شديد أحداث الحروب الفرنسية، التي كان بونابرت يشق طريقه من خلالها نحو القمة. وكان أحد خطاباته الأخيرة (إلى هاميلتون) يتناول إنشاء أكاديمية عسكرية. وكان منزله مليئًا في جميع الأوقات بأفراد العائلة والأصدقاء، وواصل مروره اليومي على مزارعه ممتطيًا جواده، بصرف النظر عن سوء الأحوال الجوية؛ وكانت آخر مرة يمر فيها على المزارع في الثالث عشر من ديسمبر/كانون الأول ١٧٩٩م. وعاد وقتها مبتلًا والثلج يتخلل شعره، وبلغ من التعب مبلغًا تعذر عليه معه أن يبدل ثيابه لتناول العشاء. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، اشتكى من الحمى وكان غير قادر على تناول الشراب. وبعد أن قام هو نفسه والأطباء بسحب كمية كبيرة من دمائه وفقًا للمعرفة الطبية البدائية آنذاك، وافت المنية واشنطن وهو يقيس نبضه بنفسه في الساعة العاشرة من مساء تلك الليلة. وقد دُفن في الثامن عشر من ديسمبر/كانون الأول في مقابر العائلة المشيدة على الطريقة القوطية، التي كان قد أعدها في حديقة ماونت فيرنون، عن عمر يناهز السابعة والستين.

وكان من بين آخر من زاروه، السيد كوبلي الابن Copley الذي قضى يومًا كاملًا في المنزل بصحبة الجنرال، وهو ابن الرسام جون سينجلتون كوبلي John Singleton Copley الأمريكي الذي ينحدر من أصل بريطاني. وللأسف الشديد لم يحظ كوبلي الأب، الذي كان أفضل رسام أمريكي في عصره بلا منازع، بفرصة لقائه قط؛ إلا أن ابنه ترك صورة صغيرة لواشنطن للوجه والكتفين. أصبح كوبلي اللورد ليندهرست Lord Lyndhurst، حيث إنه تولى رئاسة مجلس اللوردات الإنجليزي ثلاث مرات، وأصبح عضوًا في مجلس الوزراء مع ويلينجتون وبييل Peel؛ وكان الصديق المقرب لديزرائيلي Disraeli، وكان يعرف جلادستون Gladstone وماكولاي Macaulay وديكنز Dickens وثاكراي Thackeray وسكوت Scott وتينيسون Tennyson الابن. لقد قابل جميع الأشخاص ذوي الشأن في أوروبا بداية من تاليراند Talleyrand إلى جوته Goethe. ومع ذلك، ذكر عندما تقدم به العمر وتقاعد أن مقابلة واشنطن كانت أعظم امتياز حظي به، وأن اليوم الذي قضاه في ماونت فيرنون كان أروع أيام حياته.

المراجع والمصادر

المرجع المعتمد هو كتاب دوجلاس ساوثول فريمان Douglas Southall Freeman، «سيرة جورج واشنطن» George Washington: A Biography (سبعة مجلدات، نيويورك، ١٩٤٨–١٩٥٧م). وأفضل الأعمال الحديثة كتاب هاريسون كلارك Harrison Clarke، «المجد الساطع: حياة جورج واشنطن» All Cloudless Glory: The Life of George Washington (مجلدين، واشنطن العاصمة، ١٩٩٥م). يتسم ذلك الكتاب بأهمية خاصة نظرًا لأنه يكشف تزوير الخطابات، الذي وقع منه الكثير. وأيضًا يُنصح بقراءة كتاب ريتشارد نورتون سميث Richard Norton Smith، «الأب: جورج واشنطن والأمة الأمريكية الجديدة» Patriarch: George Washington and the New American Nation (بوسطن، ١٩٩٣م). ويعد كتاب ريتشارد بروكهايزر Richard Brookhiser «الأب المؤسس: إعادة اكتشاف جورج واشنطن» Founding Father: Rediscovering George Washington (نيويورك، ١٩٩٦م) معالجة موجزة ومثيرة. ويتناول كتاب هنري وينسك Henry Wiencek، «إله غير كامل: جورج واشنطن، وعبيده، ونشأة أمريكا» An Imperfect God: George Washington, His Slaves, and the Creation of America (نيويورك، ٢٠٠٣م)، موضوع امتلاك العبيد المثير للجدل. ويناقش كتاب ميريام آن بورن Miriam Anne Bourne، «العائلة الأولى: جورج واشنطن وعلاقاته الوطيدة» First Family: George Washington and his Intimate Relations (نيويورك، ١٩٨٢م)، عائلته الكبيرة. ومن

الكتب المفيدة التي تتناول الخلفية الفكرية: كتاب جيري ويلز Garry Wills، «سينسيناتوس: جورج واشنطن وحركة التنوير» Cincinnatus: George Washington and the Enlightenment (نيويورك، ١٩٨٤م)، وكتاب لويس مارتن سيرس Louis Martin Sears، «جورج واشنطن والثورة الفرنسية» George Washington and the French Revolution (ديترويت، ١٩٦٠م). ويستعرض كتاب إيميلي ستون وايتلي Emily Stone Whiteley، «واشنطن وضباطه المعاونون» Washington and his Aides-de-Camp (نيويورك، ١٩٣٦م)، عائلة واشنطن العسكرية. وكتاب ديفيد هاكيت فيشر David Hackett Fischer، «عبور واشنطن» Washington's Crossing (أوكسفورد، ٢٠٠٤م)، هو معالجة حديثة جيدة لحرب الثورة. ولمعرفة المزيد من المعلومات عن ماونت فيرنون، يرجى الاطلاع على كتاب آر إف دالزيل R. F. Dalzell و إل بي دالزيل L. B. Dalzell، «جورج واشنطن وماونت فيرنون» George Washington's Mount Vernon (نيويورك، ١٩٩٨م). أما أكثر مجموعة مفيدة من الرسائل والمذكرات والخطابات فهي تلك التي حررها الكاتب جون رودهاميل John Rhodehamel، بعنوان «كتابات جورج واشنطن» George Washington: Writings (نيويورك، ١٩٩٧م)، والتي تضم تسلسلًا تاريخيًّا كاملًا.

رقم إيداع ٢٠٣٠٢/٢٠٠٩
ISBN 978 977 6263 33 8